

اقرأ

سيد حنفى

الفروسيّة العربيّة

في العصر الجاهليّ



دار المعارف بمصر

الفروسيّة العربيّة

في العصر الجاهليّ

مستيد حنفى

الفروسيّة العربيّة

في العصر الجاهليّ

٢١١ اقرا

دار المعارف بمصر

اقراء ٢١١ - يولية سنة ١٩٦٠

ملتزم الطبع والنشر : دارالمعارف بمصر- ه شارع ماسبيرو- القاهرة

مقدمة

فوق رمال الصحراء الشاحبة ، وتحت أشعة الشمس اللاهبة
وبين تلك المراعى البائسة المتناثرة عاش أفراد شعب كأنهم
جذوع نخل سامقة ، فيهم صلابة ومضاء ، وحدة وذكاء .
قد هدتهم الفطرة للون من الحياة ، ثم دفعتهم ظروفهم وظروف
بيئتهم لتشكيل هذه الحياة . فتكونت لهم مثل فيها بداوة وفطرة ،
وتميزت لهم أخلاق فيها بأس وشدة . ذلك الشعب هو الشعب
العربي في شبه جزيرته التي كانت تحيط بها حضارة الفرس
والروم في الشمال وحضارة اليمن والأحباش في الجنوب .

ولم يعيش هذا الشعب منعزلاً عن الأجناس التي كانت
تحف به ، فقد كان جواباً لصحرائه ، متنقلاً في مراعيه ، إما
ساعياً وراء ماء أو كلاً ، أو متاجراً في أمواله وأنعامه ، أو ناقلاً
تجارة الجنوب إلى الشمال أو تجارة الشمال إلى الجنوب .

وأثر هذا كله في فروسية الجاهليين . وسجل الرواة في
لقرنين الأول والثاني الهجريين في عصر التدوين أخبار هذه

الفروسية ومظاهرها وخاصة في كتب الحماسة وشعر الحرب .
 وكعادة هؤلاء المدونين دائماً ، ولأنهم يسجلون أخبار هذه
 الفترة عن رواة يروونها شفاهاً ، شاب أخبار الفرسان كثير من
 الأساطير والمبالغات وأضيف إليهم كثير من الشعر المنتحل .
 وقد حاولت في هذا الكتيب أن أعرض لنظرية الفروسيا
 الجاهلية عرضاً سريعاً دون مناقشة أو تحليل لتفاصيل قد تكسب
 جفافاً لا يتطلبه هذا الكتيب ، فعرضت للعوامل التي ساعدت
 أو أثرت في نشأة الفروسية ، ثم تحدثت عن خطة الحرب
 عند الجاهليين وقارنتها بخطة الحرب عند الفرس والروم . وانتقلت
 إلى الحديث عن الفارس : عن سلاحه وجواده ثم عن أخلاقه
 ومثله ، وانتهيت إلى تصوير موقفه من المجتمع الجاهلي وموقف
 هذا المجتمع منه .

وجعلني هذا الحديث أذكر نماذج ثلاثة من الفرسان :
 الفارس السيد والفارس الصعلوك والفارس العبد . وأوضحت أن
 كل نموذج منهم كان يرتبط بمجتمعه ارتباطاً يخالف فيه ارتباط
 صاحبه ، كما أن كلا منهم تشابه مع صاحبه في جانب من
 مثله واختلف عنه في جانب آخر . وقد كتبت ترجمة لكل
 نموذج من النماذج الثلاثة . فمثل عمرو بن معد يكرب نموذج

الفارس السيد ومثل عروة بن الورد نموذج الفارس الصعلوك ،
ومثل عنزة بن شداد نموذج الفارس العبد . وأخيراً ذكرت أخبار
بعض الفرسان وهم ربيعة بن مكرم وزيد الخيل ثم الشنفرى .
وكان هدفى من ذكر هذه الأمثلة أن يلمس القارئ النماذج التى
تحدثت عنها نظرياً لمساً حسيّاً ، فيثبت فى نفسه ما أردت أن
أصوره فى هذا الكتيب .

وبعد . . . فإن من يتابع دراسة تطور الفروسية الجاهلية
على مدى العصور الإسلامية يرى كيف امتزجت هذه الفروسية
بفروسية الترك والفرس وكيف تغلغت فى مناطق الشرق الأقصى
حتى دخلت الهند وغربى الصين وجنوبى روسيا . ومن يتابع هذا
الامتزاج أيضاً فى الغرب فى شمالى أفريقيا وفى أسبانيا وجنوبى فرنسا
يدرك كيف كانت هذه الفروسية طابع الشرق الحربى وكيف
أفادت فروسية القرون الوسطى من هذه الفروسية العربية ، بل
إن التقاء هاتين الفروسيّتين : العربية والأوروبية فى الحروب
الصليبية ليصور أعظم تصوير خصائص كل من الفروسيّتين
وكيف أثرت الفروسية العربية فى الفروسية الأوروبية ومدى
فضلها عليها واستمدادها منها .

وقد أطلت الوقوف فى هذا الكتيب عند فروسية الجاهليين

لأننى أعتقد أن إدراكنا لطبيعة هذه الفروسية أساس مهم لفهم
الفروسية العربية بعد ذلك على توالى العصور .
والله ولى التوفيق .

سيد حنفى

لا شك أننا لو بحثنا العوامل التي دعت إلى ظهور الفروسية عند العرب الجاهليين ، لوجدناها في بيئتهم وفي تكوينهم الاجتماعي والجسمي والنفسي إذ أن ظاهرة الفروسية مظهر من مظاهر الفتوة الجاهلية ، فهي إذن ظاهرة اجتماعية دعت إليها الحياة التي يحيونها ، والإقليم الذي يتزلونه .

وقد عرفت خصائص الجزيرة الجغرافية منذ الزمن القديم ، وتحدث عنها الدارسون حديثاً مستفيضاً . وأهم ما يعنينا من هذه الدراسات أن الحياة في هذه الصحراء لم تكن كالحياة التي يعيشها سكان الأقاليم الشمالية كإقليم العراق والشام حيث الأمن مستتب تحت ظلال الفرس والروم ، والأرض خصبة تغل لأهلها الخير والحياة السهلة الآمنة برغم قسوة الفرس وظلم الرومان ، فتكونت الأسرة الصغيرة مسالمة مستكينة ، توفر لها الجيوش المنظمة حاجتها إلى الأمن والسلام .

أما الجزيرة . . . فقد فرضت الصحراء على أهلها نوعاً من

الحياة يتناسب مع طبيعتها القاسية ، وأجوائها المتقلبة ، بل إنها صبغت سكانها صبغة خاصة تختلف اختلافاً كبيراً عن صبغة من يسكنون الوديان الخصبة المثمرة ، أو من يعيشون في أجواء لطيفة معتدلة .

ويتضح تأثير الصحراء في ناحيتين : في التكوين الاجتماعي لمجموع السكان ثم في التكوين الجسمي والنفسي للأفراد . فقد فرضت الصحراء النظام القبلي كتنظيم اجتماعي لسكانها وهو نظام أملت ضرورة اجتماعية فرضتها الصحراء لاتساعها وشظف الحياة فيها ، ثم صعوبة مواصلاتها وضرورة انتقال الأفراد والعشائر من مكان إلى مكان طلباً للماء أو سعياً وراء الكلاء ، كذلك رغبة في الأمن والحماية حتى إنه لا يمكن للبدوي أن يعيش خارج نطاق هذا التنظيم ، فالحليع الذي تلفظه القبيلة قد أعدم اجتماعياً إلا إذا وجد قبيلة أخرى تضمه إليها وتفرض عليه حمايتها .

ولا يسرى النظام القبلي فحسب على سكان البوادي ، وإنما يفرض نفسه أيضاً على سكان المدن القليلة المتناثرة في الصحراء ، فكل مدينة تنقسم في داخلها إلى مناطق ، كل منطقة تسكنها قبيلة من القبائل النازلة فيها ، وتعيش القبيلة في داخل المدينة وكأنها

نعيش في بادية ، فكل مظاهر القبلية من منازعات وأحلاف ،
 ونخلع وجوار يتحقق في المدينة كما يتحقق في البادية .
 وكما كان النظام الإقطاعي في أوروبا في العصور الوسطى
 عاملاً من عوامل ظهور الفرسان كذلك كان النظام القبلي عاملاً
 من عوامل ظهور الفروسية الجاهلية ، فكما يحكم المقاطعة حاكم
 أو أمير يدير شئونها وينظم أحوال ساداتها وعبيدها وقد يكون
 ولاؤه لحاكم أكثر منه قوة يمدّه بالعون الأدبي والمادي في وقت
 الحاجة أو أثناء وقوع أزمة - كذلك يصرف شيخ القبيلة أمور
 قبيلته ، وينطوي تحت لواء قبيلة أخرى أكثر عدداً وأقوى عدة
 حتى يأمن الغارات ، ويستنصرها في الملمات ، وكثيراً ما كانت
 تخرج القبيلة عن ولائها لحاميتها لتدخل في ولاء قبيلة أخرى أعظم
 قوة وأوفر أموالاً .

فالنظام القبلي إذن هو الذي أوجد نظام الفرسان الذين
 يمثلون الجيش في الدولة ، ولو كان العرب في صحرائهم أمة واحدة
 لكان الجيش جيشاً واحداً يفرض حمايته على الجميع ويشيع
 الأمن بين الناس ، وهذا لن يدع فرصة لروح الفردية أن تظهر
 أو يسمح لفارس أن يخرج عن خطة الجيش ليبرز ، إذ أن
 قيمة التنظيم العسكري فيما يقوم به المجموع لا فيما يقوم به الفرد ،

أما وقد كان العرب في صحرائهم قبائل كثيرة متفرقة فقد تعددت الجيوش وكان كل جيش قائماً بنفسه ، وكل فرد يهتم بإظهار بطولته وتمجيد فروسيته ، لا يخضع لتنظيم حتى تصبح ضربته ضربة للقبيلة كلها ، ولا يرضى بقيادة حتى يوجه مع المقاتلين نحو الهدف الأول وهو هزيمة الأعداء . لذلك أصبح انتصار القبيلة يتوقف على تصرف الأفراد وقدرتهم في القتال لا على التنظيم العسكري لمجموع المحاربين مما قوى روح الفردية ، وجعل الفرصة مواتية للأفراد لإظهار شجاعتهم وإبراز فروسياتهم . وكم كانت نشوة الحرب تبلغ بالفارس حين يناديه الأبطال ليبرز إليهم يضاوهم ويصاولونه ، ويصارعهم ويصارعونه ، وكأن المعركة معركة الخاصة وليست معركة القبيلة كلها . يقول عنتر

وقد بلغت به نشوة القتال مبلغها :

يدعون عنتر والرماح كأنها أشطانُ برٍّ في لبانِ الأدهم
ويقول

ولقد شنى نفسى وأبرأ سقمها قبل الفوارس : ويك عنتر أقدم
فالمعركة إذن معركة أفراد ، والفرد في يده النصر كما في يده الهزيمة ، وغالباً ما ينتظر الجيشان نتيجة هذا الصراع الفردي ، ثم يحمل كل جيش على الآخر ، ولما كان في هذه المبارزات

الفردية مصير المعركة نجد القبائل تدفع بأشهر فرسانها في أول القتال حتى تضمن الغلبة .

والواقع أن الفارس هنا كان يمثل القبيلة ولم تكن القبيلة تمثله إلا في نطاق انتسابه إليها ، فليس غريباً إذن أن يشيد بنفسه لأن في هذا تمجيد للقبيلة ، وأن يظهر قدرته لأن في هذا قوة لها .

فطبيعة تكوين المجتمع الجاهلي وانقسامه إلى قبائل متفرقة من أهم العوامل التي أتاحت للفروسية العربية أن تظهر كما كانت تلك الظاهرة نفسها وهي انقسام أوروبا إلى مقاطعات صغيرة متحاربة هي التي أتاحت للفروسية أن تظهر عندهم .

* * *

وعامل اجتماعي آخر لعب دوراً هاماً في توجيه الفروسية العربية ، وفي بناء الفارس الجاهلي وذلك هو العصبية الجاهلية التي سببت كثيراً من الحروب التي وقعت بين القبائل ، ونظرة واحدة إلى أيام العرب في الجاهلية توضح إلى أي مدى كانت القبيلة في حاجة إلى فرسان مدربين لهم نفسية خاصة وتكوين جسمي معين .

وتنقسم أيام العرب حسب تكوينهم القبلي إلى مجموعات :

١ - أيام القحطانية (عرب الجنوب) فيما بينهم ، وأشهرها :

أيام البردان والكلاب الأول واليحميم ثم حروب الأوس
والخزرج

٢ - أيام العدنانية (عرب الشمال) فيما بينهم ، وأشهرها :
أيام ربيعة فيما بينها وأهمها حرب البسوس ، وأيام ربيعة وتميم ،
وأيام قيس فيما بينها وأهمها يوم داحس والغبراء ، وأيام قيس
وكنانة وأهمها حروب الفجار ، وأيام قيس وتميم ، وأيام ضبة .
٣ - أيام بين القحطانية والعدنانية وأشهرها :

أيام طخفة وأوارة الأول والثاني وخزاز والكلاب الثاني .
٤ - أيام بين العرب وبين الفرس أو الروم أو الأحباش ،
وأشهرها :

يوم الصفقة ويوم ذى قار بين العرب والفرس .
ولم تكن هذه الحروب أو الأيام قتالا فاصلا بمعنى أن جيوشاً
تلتقى وتقرر مصير المعركة ، برغم أن العرب كانوا في جاهليتهم
أهل حروب كثيرة غير أنها لم تكن حروباً منظمة وإنما كانت
تلتقى فيها القبائل المتحاربة ساعات من النهار ثم يقف القتال إذا
ما حل الليل ، وربما انقضت الحرب بعد ذلك أو استؤنفت في
اليوم التالي . وكان الكثير من هذه الأيام غارات تفاجئ بها
القبيلة الأخرى في غيبة من رجالها الذين يكونون قد خرجوا لأمر

من أمورهم ، وسرعان ما ينسحبون وقد سبوا النساء وسلبوا الأموال .
ولو حاولنا أن نحصى أسباب هذه الحروب لوجدناها
لا تخرج عن رغبة في سلب الأموال وسبي النساء ، أو مزاحمة
على الماء والكلاء ، هذا إلى جانب أسباب أخرى تدعو إليها
عنجهية البدوى ، وتمس صميم كرامته وقد تضرب على أهم وتر
في حياة الجاهليين وهو تمرد فردياتهم ضد فردية الآخرين مثل
حرب البسوس التي وقعت من أجل ناقة وكان الدافع إليها الحفاظ
على الحوار . أو حرب داحس والغبراء التي أفضى إليها التنافس
في الرهان بين سيدى قبيلتين عظيمتين . وقليل ما كانت تقع
الحرب لدفع عدو غريب كيوم ذى قار بين الفرس وبنى بكر
وفيه انتصر العرب على الفرس انتصاراً ساحقاً ، أو حروب اليمن
والأحباش التي انتهى بعضها باحتلال الأحباش لليمن ،
وذلك لأن العرب في داخل جزيرتهم كانوا في حماية الصحراء ،
ولم يكن اختراقها أمراً سهلاً بالنسبة لجيوش ذلك العصر ، ولهذا
فإن مثل هذه الحروب لم تكن تقع إلا في الأطراف الشمالية أو
الجنوبية للجزيرة حيث يتاخم العرب الأجناس والدول الغربية
عنهم كالفرس والروم والأحباش .

كذلك كان يحدث أن يقاتل العرب في صفوف الفرس أو

الروم أعداء هاتين الدولتين سواء أكان الأعداء عرباً أم غير عرب وذلك نتيجة للسياسة التي سارت عليها هاتان الدولتان في حماية حدودهما الجنوبية بإقامة إمارتي الحيرة وغسان وكان يحكمهما ملوك من العرب يخضعون لسلطانهما ويحاربون في سبيلهما .

كانت معظم حروبهم إذن داخلية قبلية ، وربما اشتركت فيها عدة قبائل متحالفة ليس لها مصلحة في القتال . إلا مخالفة قبيلة تريد الحرب لرفع ظلم أو ردّ غبن أو لسلب مال ونهب غير . ولم تكن هذه الحروب والغزوات تفجع البدو بكثير من القتل إذ كانت الخطة المتبعة هي خطة حرب انعصابات الحديثة في معظم الأحوال وهي تلك التي تقول « اضرب واهرب » فقد كانت معظم غزوات الجاهليين قائمة على النهب والفرار بالغنيمة . ويقول بعض الباحثين إن البدوي كان يتحامي القتل جهده لأن تقاليدهم تقضى بأخذ الثأر أو الدّيات الباهظة ، وربما لا تغسل الديات الأحقاد لما في قبولها وترك الدم من غضاضة ، ثم لا اعتقادهم أنه إذا قتل الرجل ولم يدرك بثأره خرج من رأسه طائر يشبه البوم يسمونه الهامة أو الصدى ، فلا يزال يصيح : « اسقوني !

اسقوني ! » حتى يقتل القاتل أو أحد أقاربه . يقول ذو الإصبع
العدواني

يا عمرو وإلا تدع شتمى ومنقصتى أضربك حتى تقول الهامة أسقوني
وربما كان هذا رأى تفسيراً بسيطاً لظاهر الأمر ، ولكن
إذا كنا قد فهمنا إلى أى مدى كان الجاهلى يشعر بذاته
ويهتم بها ، ولم تكن هناك عقيدة دينية أو مبدأ دنيوى يدفعانه
إلى أن يضحى بهذه الذات فى سبيل نصره عقيدة كما حدث فى
الإسلام ، أو نصره مبدأ كما يحدث فى الدفاع عن النظريات
السياسية والاقتصادية . . . إذا كنا قد فهمنا هذا فإننا نستطيع
أن نعرف السبب الحقيقى فى حرص المقاتل الجاهلى على حياته ،
وليس معنى هذا أن أنانية الجاهلى منعه من الدفاع عن قبيلته
أو أورثته الجبن والخور ، فالخروب الجاهلية تثبت عكس ذلك ،
فقد كان المقاتل مستعداً لأن يضحى بنفسه فى سبيل الدفاع عن
شرف القبيلة وكرامة العشيرة وخاصة إذا كان الأمر يتعلق بشرف
المرأة التى فى عصمته ، أو تلك التى تمثل شرف القبيلة وكرامة
من يمثلونها كما حدث فى يوم البردان عند ما أسر زياد بن الهبولة
هند بنت ظالم زوج حجر بن عمرو بن معاوية الكندى .

سبب آخر دعا إلى ظهور الفروسية الجاهلية وهو طبيعة الصحراء والأخطار التي كان يتعرض لها الجاهلي في حياته اليومية وربما كان لفظ الأخطار لفظاً عاماً يشمل كل مسببات الحروب التي وقعت في العصر الجاهلي . ولكنني أعني هنا نوعين من الأخطار فرضتهما حياة الصحراء ، أخطار أسبابها اقتصادية وأخرى أسبابها اجتماعية ؛ ويتمثل النوع الأول فيما يعتور الجزيرة من قحط يدهمها بين حين وحين ، وجذب يقتل حيواناتها بين فترة وأخرى ، فكان على أفراد القبيلة أن يقاوموا هذا القحط وأن يدفعوا ذلك الجذب ، وهنا كان الصراع المرير يبلغ أشده بين القبائل على مواطن الكلاً والماء مما كان يتيح للفرسان أن يظهرُوا بطولتهم في الدفاع عن هذه المواطن أو الإغارة عليها حفاظاً لحياتهم وحيوات قبائلهم وأنعامهم ، وربما اشتد القحط واكتظت بعض المناطق بساكنيها فلا يبقى هناك مفر من الهجرة ، فتخرج القبائل نازحة إلى مناطق أخرى تنزل فيها ، وربما نزلت على قبائل مقيمة في تلك المناطق فينشب صراع هائل في سبيل العيش قد ينتهي بانتصار المهاجر واستكانة النازل وبقائهما معاً في هذا الوطن كما حدث عند ما نزل الأوس والخزرج في ظاهر المدينة وتغلبوا على قبائل اليهود فيما بعد وجاوروهم ، أو هزيمة

المهاجر أو النازل فيترح المهزم إلى مكان آخر يجد فيه المأوى والمرعى كما حدث لبعض قبائل عمرو بن عامر بعد أن هاجرت إلى الشمال بسبب اشتداد القحط بعد انهيار سد مأرب ، وتفرق القبائل القحطانية وسط الجزيرة وشاليها . وكان الفرسان هم عماد هذه الهجرات ووقود تلك الحروب .

كذلك كانت القوافل التجارية تقطع الصحراء شمالاً وجنوباً محملة بتجارة الشرق ، ولم تكن الطريق مأمونة لها أو ذلولة لسالكها ، فظهرت طائفة من الفرسان تحمى القوافل وتؤمن الطريق وتأخذ الأجر على ذلك ، وبرغم هذا لم تكن القوافل تسلم من الغارات عليها ، وقطع الطريق على أصحابها ، فنشبت الحروب بين حمايتها وبين المغيرين عليها كما حدث يوم الصفقة فقد بعث كسرى أنوشروان إلى عامله باليمن عيراً تحمل نبعا وهو شجر ينبت في قمم الجبال كانت تصنع منه القسي والسهام . وكان جنود كسرى يخفرون القافلة من المداخن العاصمة حتى تصل إلى النعمان بالحيرة فيبعث معها النعمان بفرسان من بني ربيعة يخفرونها حتى تدفع إلى هوزة بن علي الحنفي فيخفرونها حتى يخرجها من أرض بني حنيفة ثم تدفع إلى تميم ويجعل لهم أجر فتسير في حراسة فرسان بني تميم حتى تبلغ اليمن وتسلم إلى عمال

كسرى هناك . ولما بعث كسرى بالغير ووصلت إلى اليمامة قال
هوذة بن علي لحراسها من الفرس : انظروا الذي تجعلونه لبنى
تميم فأعطونيهِ وأنا أكفيكم أمرهم وأسير بها حتى تبلغوا مأمنكم .
فلما بلغ بنى تميم ما صنع هوذة بن علي ساروا إليهم وأخذوا
ما كان بالقافلة فاقسموه وقتلوا حمايتها وأسروا هوذة بن علي
فاقتدى منهم نفسه بثلاثمائة بغير . واستطاع كسرى أن ينتقم
من بنى تميم بسبب ذلك .

فواضح هنا أن طبقة من الفرسان العرب كانت تأخذ جعلاً
من المال مقابل حراستها للقوافل التجارية وخاصة عند ما كانت
تمر بأراضي قبائلها .

أما النوع الآخر من الأخطار فكان يتمثل في نشوء طبقة
من الفرسان الفقراء لهم تقاليدهم الخاصة وحياتهم المتميزة ،
ربضوا في بطن الصحراء يقطعون السبيل ويغيرون على القوافل
ويتقاسمون الغنيمة ، ويتعاونون في دفع المكروه عن أنفسهم وتلك
الطبقة هي « صعاليك العرب » .

والصعاليك نفر من العرب فقراء جياع ، منبوذون من
مجتمعهم ، مخلوعون من قبائلهم ، محتقرون من عشائريهم ، وقد
كان قيس بن الحداية يرى أنه لا يساوى عند قومه « عنزاً

جرباء جذماء» ؛ وفي أخبار الشنفرى أن قومه قتلوا رجلاً فى خفرة
بعض الفهميين فرهنوهم الشنفرى وأمه وأخاه وأسلموهم ولم
يفدوهم . والمتأمل فى أخبار الصعاليك وأشعارهم يجد أنهم
يشعرون شعوراً أليماً بفقرهم ويحسون إحساساً مريراً بهوان منزلتهم
الاجتماعية وعدم تقدير المجتمع لهم ، لا لأنهم عاجزون وإنما لأن
مجتمعهم ظلمهم وحرّمهم العدالة الاجتماعية التى يتوقنون إليها ،
وحرّمهم الوسائل المشروعة التى تسمح لهم بمواجهة الحياة كما
يواجهها غيرهم . لذلك لم يجدوا أمامهم إلا أمرين : إما أن يقبلوا
على هذه الحياة الذليلة وإما أن يشقوا طريقهم بالقوة نحو حياة
كريمة يفرضون فيها أنفسهم ويتزعمون لقمة العيش من أيدي من
حرّمهم إياها ، دون أن يبالوا بالوسيلة التى يتخذونها سواء كانت
مشروعة أو غير مشروعة . فلا الموت يمنعهم ولا القتل فى
ميادين القتال يصدّهم . وقد سلك معظم الصعاليك السبيل الثانى
يقول عروة :

إذا المرء لم يبعث سواماً ولم يترح عليه ولم تعطف عليه أقاربه
فللموت خير للفتى من حياته فقيراً ومن مولى تدبُّ عقاربه

ويقول

فقلت له :

ألا احثي وأنت حرٌّ ستشبع من حياتك أو تموت

ويتضح مدى استهانة هؤلاء الناس بالحياة في قول عروة أيضاً :

أرى أم حسان الغداة تلومني تخوفني الأعداء والنفس أخوف

لعل الذي خوفتنا من أمامنا يصادفه في أهله المتخلف

ويقول تأبط شراً :

لو كنت في ريمان تحرس بابه أراجيل أحبوش وأغضف ألف

إذن لأتني حيث كنت منيتي يحب بها هادي بأمري قائف

إذن فهؤلاء الناس لا يثنيهم عن تحقيق أهدافهم شيء ولو

كان الموت نفسه لأنهم يعلمون أن الموت لا مفر منه وسوف يلقاه

كل فرد سواء أكان جباناً متخوفاً أم شجاعاً متهوراً لذلك

اتسمت فروسياتهم بطابع المغامرة والجاهة الحارقة فخافهم العرب

حتى إننا نجد فارساً من العرب المعدودين وهو عمرو بن معد يكرب

يصرح بأنه لا يخشى أحداً من فرسان العرب إلا أربعة أحدهم السليك

ابن السلكة الصعلوك. يقول : « لو سرت بظيعة وحدي على مياه

معد كلها ما خفت أن أغلب عليها ما لم يلقي حُرَّاهَا أو عبداها ،

فأما الحران فعامر بن الطفيل وعتيبة بن الحارث بن شهاب ،

أما العبدان فأسود بنى عبس (يعني عنبرة) والسليك بن السلكة ،

وكلهم قد لقيت ، فأما عامر بن الطفيل فسرّيع الطعن على الصوت ، وأما عتيبة فأول الخيل إذا أغارت وآخرها إذا آبت ، وأما عنزة فقليل الكبوة شديد الجلب وأما السليك فبعيد الغارة كاليث الضارى .

وعرف الصعاليك بالشجاعة الفائقة حتى لقد ضربت بشجاعتهم الأمثال ، فمن حديث لرسول المهلب يصف فيه للحجاج ابن يوسف الثقفى قتاله الخوارج :

« كان يقاتلهم بجنده مقاتلة الصعلوك » . وكان الصعاليك يأنفون من الأعمال التى يقوم بها العبيد كما يأنف السادة من رعى للإبل وخدمة للأحرار ، يقول تأبط شراً :

ولست براعٍ ثلة قام وسطها طويل العصا غرنيق ضحلٍ مرسل
تلك إذن هى طبقة فرسان الصعاليك وهى طبقة سببها ظروف اجتماعية واقتصادية ، وهم يختلفون عن الفرسان السادة الذين تفخر بهم القبائل إذ أنهم قوم دفعهم وضعهم الاجتماعى والاقتصادى إلى نوع من الفروسية تنبع مبادئها من طبيعتهم ومن ظروفهم ، وهى فروسية تختلف فى بعض مظاهرها عن فروسية السادة . ونلاحظ هذا الاختلاف عند ما يرسم تأبط شراً صورة الفارس الصعلوك فيقول :

قليل . التشكى للمهم يصيبه
 كثير الهوى شتى النوى والمسالك
 يظل بمومة ويمسى بغيرها
 جحيشاً ويعرورى ظهور المهالك
 ويسبق وفد الريح من حيث ينتمى
 بمنخرق من شدة المتدارك
 إذا خاط عينيه كرى النوم لم يزل
 له كالىء من قلب شبحان فاتك
 إذا طلعت أولى العدى فسفره
 إلى سلة من صارم الغرب باتك
 إذا هزه فى عظم قرن تهلت
 نواجد أفواه المنايا الضواحك
 يرى الوحشة الأنس - الأنيس ويهتدى
 بحيث اهتدت أم النجوم الشوايك
 فهو يقول إن الفارس الصعلوك صبور على الهموم كثير
 المسالك مختلف الهوى ، وهو يقطع الصحراء وحيداً راكباً ظهور
 المهالك ، وهو سريع العدو فحيثاً اتجه فى سيره سبق الريح
 بخفته ، وهو ينام نوماً خفيفاً ، لا يغط فيه أو يستغرق ، وهو

شجاع فأتك يفرع إلى سيفه إذا طلعت إليه مقدمات الجيوش ،
وهذا السيف متى حركه في وجه قرن ضحك الموت لعلمه أنه
ظافر به ، وهذا الفارس أنسه في الوحشة والتفرد ، وهو يعلم طرق
الصحراء ويسير فيها دون دليل يهتدى كما تهتدى الشمس في
حركاتها اليومية .

هذه صورة الفارس الصعلوك وهي تختلف عن صورة
الفارس السيد الذي يمثلها مثلاً عمرو بن كلثوم حين يقول :

أبا هند فلا تعجل علينا	وأنظرنا نخبرك اليقيننا
بأننا نورد الرايات بيضاً	ونصدهن حمراً قد رويننا
وأيام لنا غرّ طوال	عصينا الملك فيها أن نديننا
وسيد معشر قد توجه	بتاج الملك يحمى المحجريننا
تركنا الخيل عاكفة عليه	مقلدة أعتها صفوننا
وأنزلنا البيوت بذي طلوح	إلى الشامات تنفى الموعدينا
وقد هرت كلاب الحى منا	وشد بنا قتادة من يليننا
متى ننقل إلى قوم رحانا	يكونوا في اللقاء لها طحيننا
يكون ثفالها شرقى نجد	ولهوها قضاعة أجمعينا

ويستمر في هذا الفخر وهذا الإحساس بالسيادة والسلطان
إلى أن يقول :

ورثنا المجد قد علمت معد نطاعن دونه حتى يبيننا
ونحن إذا عماد الحى خرت على الأحفاض نمنع من يلينا
نجد زعوسهم فى غير بر فما يدرون ماذا يتقوننا

هذا وسوف نترجم لفارسين يمثلان الطبقتين .

* * *

وكان نتيجة لتلك الأخطار الطبيعية التى يجابهها الجاهلى فى صحرائه من مقابلة للوحش أو منازلة لقطاع الطرق أن اتجه تفكيره نحو اتخاذ وسيلة سريعة يستطيع بها الهرب من مثل هذه الأخطار التى لا يستطيع أن يدافع عن نفسه ضدها فكانت الناقة وكانت الفرس هما الوسيلتان السريعتان اللتان ينقذانه من هذه المآزق وإن كانت الفرس أفضل من الناقة فى هذه الناحية .

وقد لاحظ بعض الباحثين أن العرب عرفوا الفرس فى صحراء نجد وقلت معرفتهم بها فى اليمن ويرجع ذلك إلى أن طبيعة الأخطار التى يمكن أن يقابلها العربى فى وهاد نجد تختلف عن تلك التى يمكن أن يقابلها العربى فى اليمن ، لذلك عنى أهل الصحراء بالفرس فكرموها وبالغوا فى رعايتها ، وحفظوا أنسابها فكانت وسيلتهم فى الهروب من مواطن الخطر كما كانت وسيلتهم فى مواجهتها .

فوجود الفرس في الصحراء وإدراك الجاهلي لقيمتها وعنايته بها وحرصه عليها حرصه على وليده كان عاملاً من العوامل التي ساعدت على نشأة الفروسية الجاهلية .

* * *

ولا نستطيع أن نهمل أثر الرياضة التي كان يزاورها الجاهلي كعامل من العوامل التي جعلت الفروسية الجاهلية تأخذ طابعها المألوف ولا سيما أن هذه الرياضة كانت تعتمد على فرسه وسلاحه إلى حد كبير . فقد عرف العرب السباق بين الأفراس وليست حرب داحس والغبراء إلا نتيجة لهذا السباق . وقد جاء في مسند أحمد من حديث عبد الله بن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم سبق بين الخيل وأرهن وفي المسند أيضاً من حديث أنس أنه قيل له : أكنتم تراهنون على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يراهن ؟ قال : نعم ، والله لقد راهن رسول الله صلى الله عليه وسلم على فرس له يقال له سبعة فسبق الناس فبش لذلك وأعجبه .

كذلك كان من رياضتهم ركوب الخيل والكر والفر بها ، والمقارعة بالسيوف والطعن بالرمح والرمي بالقوس والمصارعة بين ندين . وكانت تلك الرياضات تدريباً عملياً يفرض على الفتى

الجاهلي ليصبح فارساً . فقد عرف ابن القيم الجوزية الفروسية فقال : « الفروسية أربعة أنواع أحدها ركوب الخيل والكر والفر بها والثاني الرمي بالقوس ، والثالث المطاعنة بالرماح ، والرابع المداورة بالسيوف ، فمن استكملها استكمل الفروسية » .

كذلك صار رسول الله صلى الله عليه وسلم شباب قريش قبل الإسلام وبعده فقد صار ركانة بن عبد يزيد بن هشام ابن المطلب مرتين أو ثلاثاً قبل إسلامه وقيل لقد كان ذلك سبب إسلام ركانة ، فقد روى أن ركانة بن عبد يزيد الذي صار النبي صلى الله عليه وسلم قبل الإسلام وكان أشد الناس قال : يا محمد ! إن صارعتني آمنت بك ، فصرعه النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال أشهد أنك ساحر ثم أسلم بعد .

كذلك كانت رياضة الصيد نوعاً من التدريب على تحكيم الفارس في فرسه وامتحاناً لقدرته على إصابة الهدف أثناء عدو جواده . والصيد ضرورة لحأ إليها الجاهلي لإشباع جوعه قبل أن يكون وسيلة من وسائل رياضته . وقد أتاحت له الصحراء بامتدادها الشاسع وحيواناتها الكثيرة السريعة العدو أن تتغلغل هذه الرياضة في نفوسهم فكانوا يترنمون مشيدين بها واصفين لها ، ويفخرون ببراعتهم وقدرة خيولهم على العدو ، وكلنا يذكر صورة

امرى القيس التى ذكر فيها كيف أن فرسه قيد الأوابد أى أنه استطاع أن يحاذى الوحوش فى عدوها فلا هى تسبقه ولا هو يسبقها يمكن الفارس أن ينال بغيته فى صيدها . يقول واصفاً قدرته وقدره جواده :

فعلن لنا سرب كأن نعاجه	عذارى دوار فى ملاء مذيل
فأدبرن كالجزع المفصل بينه	يجيد معم فى العشيرة مخول
فألحقه بالهساديات ودونه	جواحرها فى صرة لم تزيل
فعادى عداء بين ثور ونعجة	دراكًا ولم ينضح بماء فيغسل
فظل طهاة اللحم من بين منضج	صفيق شواء أو قدير معجل

* * *

بقى سؤال أخير قد يتردد فى أذهاننا ونحن نعالج العوامل التى أثرت أو ساعدت فى نشأة الفروسية الجاهلية وهو : ألم تؤثر فروسية الروم أو الفرس فى فروسية الجاهليين وإلى أى مدى يمكن أن يتغلغل هذا التأثير ؟

لا شك أننا نعلم أن الجزيرة العربية لم تكن منفصلة عن العالم الخارجى ، فقد كان احتكاك العرب بالفرس والروم مستمرًا منذ وقت طويل بسبب الحروب والتجارة ، فعرف العربى كيف يلبس الفرسان من الفرس والروم ، وعرف بأية أسلحة يقاتلون

كما عرف فنون قتالهم وكيف يصاولون ويداورون .

فخر العرب بالسيوف المشرفية عند ما يقول شاعرهم :

ولو سئلت عنا جنوب لحبرت عشية سالت عقرباء بها الدم
عشية لا تغنى الرماح مكانها ولا النبل إلا المشرفى المصمم
فلو بحثنا فى معنى المشرفى من السيوف نجد أن من معانى
هذه الصفة أن السيوف المشرفية منسوبة إلى مشارف الشام الخاضعة
للفوز الرومانى أو مشارف الهند التى تحدد الإمبراطورية الفارسية من
الشرق وكانت العلاقة بين عرب الجزيرة وبين هاتين الدولتين
مستمرة فى الجاهلية سواء عن طريق التجارة أو الحرب .

كذلك افتخر العرب بالرماح الخطية ، ويقول الأصمعى :

لا أعلم إلا أن نسبة الخط وهى جزيرة بالبحرين إليها تنسب
الرماح إلا أن يقال إن سفن الرماح ترفأ إلى هذا الموضع ف قيل
للرماح خطية . ونقول متسائلين : ومن أين كانت تجيء هذه
السفن التى كانت ترسو فى جزائر البحرين ومنها تنتقل إلى
الجزيرة العربية ؟ فإما أنها آتية من الهند أو جنوب فارس (١) .
كذلك يفتخر العرب بالكنائن الزغرية ، والكناينة محفظة

(١) عن الجوهري : الخط موضع باليمامة ، وهو خط هجر تنسب إليه

الرماح الخطية لأنها تحمل من بلاد الهند فتقوم به .

(اللسان مادة خطط)

النبال ، وهى منسوبة إلى زُغَر موضع بالشام تعمل به كنائن حمر
 مذهبة أى أنها من مناطق رومانية ، يقول أبودؤاد واصفاً فرساً :
 ككنانة الزُغرى زينها (م) من الذهب الدلاص
 ومن عدتهم الحربية أيضاً الدرع وهو القميص المتخذ من
 الزرد ، ويظهر أن مثل هذه الدروع كانت تصنع أفضل أنواعها
 خارج الجزيرة العربية إذ يقول الشاعر العربى :
 بكل فرعونية لونها لون فضيض البغشة الغادية
 فالدرع هو هذه الفرعونية منسوباً إلى فرعون مصر .
 عرف العرب كذلك المنجنيق وهو آلة تقذف بها الحجارة
 أو الخرق المشتعلة على حصون الأعداء وقد نصب رسول الله
 صلى الله عليه وسلم منجنيقاً على أهل الطائف . وواضح أن هذه
 الآلة غير عربية .
 إذن لا شك أن فروسية الشعوب الشمالية قد أثرت فى
 الجزيرة العربية ولكننا لا نستطيع أن نقول إن هذه الشعوب أثرت
 فى العرب التأثير كله وإنما هو نوع من التأثير حتمته طبيعة
 المخالطة ، وفرضته هذه الاحتكاكات المستمرة .
 وإذا أردنا أن نبين كيف أن العرب تفردوا فى كثير من
 مظاهر الفروسية ، فلنقارن بين فن القتال عند العرب هذا

الفن عند الفرس والروم ، فالخطة الجاهلية تعتمد على خفة المقاتل وسرعة حركته لينفذ مبدأ « الكر والفر » وهو المبدأ الذي تطبعت به الحروب العربية جميعها . يقول الألوسي : « وصفة الحرب الواقعة بين أهل الخليفة منذ أول وجودهم على نوعين : نوع بالزحف صفوفاً ، ونوع بالكر والفر . أما الذي بالزحف فهو قتال العجم كلهم على تعاقب أجيالهم ، وأما الذي بالكر والفر فهو قتال العرب والبربر من أهل المغرب » وتلك الخطة هي التي نجد امراً القيس يدرّب فرسه عليها ويمدحه بها عند ما يقول :
مكر مفر مقبل مدبر معا كجلمود صخر حطه السيل من عل
وليس الكر والفر مبدأ اخترعه العرب وإنما فرضته ظروف الصحراء ، إذ عند ما يهاجم الجيش العربي قوات العدو ثم تشتد عليه وطأة القتال ينسحب إلى الصحراء — حاميته الأولى وحصنه الصعب الاختراق — فلا يستطيع العدو أن يتبعه داخلها ، فيجمع شمله وينظم صفوفه ثم يهجم ثانياً ، ويتكرر هذا الكر والفر حتى تتكسر قوة جيش العدو فيهجم الهجوم الأخير الساحق ويفسر بعض الباحثين الكثير من الحروب الإسلامية على أساس هذا المبدأ ، بل إن خالد بن الوليد قد نفذ تنفيذاً متقناً في حروبه وخاصة في غزوة أحد وفي موقعة اليرموك .

وبهذا المبدأ أيضاً يعلل بعض الباحثين نشأة المدن العسكرية الإسلامية كالكوفة والقسطنطينية . فعندما نزل عمرو بن العاص بالجيزة رفض عمر بن الخطاب أن يعسكر الجيش الإسلامي في هذه المنطقة الزراعية وطلب منه أن يختار مكاناً آخر يقع على أطراف الصحراء ليناسب البيئة العربية ثم لتحميم الصحراء عندما يقوم الجيش بتنفيذ خطة «الكر والفر» ؛ ونحن نذكر كيف أن بعض القبائل التي نزلت الجيزة رفضت الانتقال بعد أن ألفت الحياة الناعمة ، فطلب منها عمرو بن العاص أن تبنى حصناً لها تلجأ إليه بدلاً من اللجوء إلى الصحراء ، فرفضت هذه القبائل لأنها ليست ممن يقاتل من وراء الحصون وأخيراً قبلت بناء الحصن بعد جدال طويل .

أما الخطة الفارسية والرومانية فكانت عكس الخطة العربية ، فهم إما مهاجمون في صورة زحف صفوفاً وراء صفوف ، أو مدافعون من وراء الحصون . وفي كلتا الحالتين يتحمل الجيش الكثير من الصعاب وخاصة إذا كان أمامه جيش من العرب ينفذ خطة «الكر والفر» فالمهاجم للجيش العربي إذا فشل هجومه تعرض للهزيمة ، والمدافع ضد هجماتهم من وراء الحصون تقل عزيمته ويرفع راية التسليم بعد حصار طويل تنفشي فيه المجاعة

والأمراض فهوى روح الجيش المعنوية إلى الخضيض ، لذلك لم
يغير العرب من خطتهم هذه حتى في العصور الإسلامية الأولى
عصور الفتح والحضارة الزاهرة .

وقد لا نستطيع في هذا الكتيب الصغير أن نتناول بالمقارنة
الطويلة مدى تأثير الفروسية الفارسية والرومانية في فروسية
الجاهليين ، ولكنى أعتقد أن هذه الإشارات السريعة تبين أن
هناك نوعاً ما من التأثير وبخاصة في بعض ألوان التسليح أو في
تقاليد المبارزات الفردية ، وكذلك في تأثير الخيال العربي
بنموذج الفارس الفارسي لأن قصص فرسان الفرس والأساطير التي
تتناول حياتهم كقصص رستم واسفنديار كانت معروفة
للجاهليين قبيل الإسلام ، وكانوا يستمعون إليها في مجالس سمرهم
وساعات لهوهم من قصاصين من العرب سافروا إلى الشمال والشرق
وعاشوا بين هذه الشعوب فترات طويلة . ومن هؤلاء القصاص
من عارض قصص القرآن بقصص الفرس ، وحاول أن يقلل من
أهمية هذه الأخبار التي كان الرسول صلى الله عليه وسلم يعظ
قومه بها .

تلك إذن هي العوامل التي دعت إلى ظهور الفروسية
الجاهلية والمؤثرات التي وجهتها وجهة معينة أو طبعها بطابع خاص .

والآن ما هي صفات الفارس العربي الجسمية وما هي تقاليده ومثله ، ثم ما هي أسلحته وألوان فروسيته ، وأخيراً ما هي أخلاقه وعلاقاته بمجتمعه الجاهلي وما نظرة هذا المجتمع إليه ؟ كل هذه الأسئلة يستطيع التاريخ القديم والشعر الجاهلي أن يجيبا عنها في دقة .

ليس هناك اختلاف كبير في التكوين الجسمي وملامح الخلقة بين الجاهلي القديم في صحرائه وبين البدوي الحديث في جزيرته . فكلاهما جاف العود ، صلب التكوين ، يميل إلى السمرة الشديدة بسبب حرارة الشمس وشظف العيش ، وقد يكون هناك اختلاف طفيف بين الفارس السيد والفارس العبد أو الصعلوك من ناحية المظهر الجسمي كظهور آثار النعمة والعيش الرغيد على السيد وعدم ظهورها على الصعلوك والعبد . وإذا تأمل إنسان وجه البدوي فسيجده أسود العينين مقوس الأنف شفتاه أقرب إلى الغلظة ، وشعره أقرب إلى التجعد . وهو يميل إلى الطول

لذلك مدح العرب الرجل الطويل النجاد أى طويل حمائل
السيف يعنون بذلك مدح ظاهرة الطول فى العربى .

والعربى حديد البصر ، سريع العدو ، مكر التفكير ،
وكلها صفات تتطلبها البيئة التى يعيش فيها ، وليس معنى ذلك
أن العرب جميعاً لهم تلك الصفات ، فهناك من اختلطت دماؤهم
بدماء أجنبية لذلك نجد فيهم الأبيض اللون والأشقر الشعر ،
كما نجد فيهم شديد سواد البشرة تشبه ملامحه ملامح الزنجى .

وإذا عرضنا للملابس الفارس العربى فسنجد رسالة من عمر
ابن الخطاب ينصح فيها فرسان المسلمين يقول فيها : « أما بعد ،
فاتزروا وارتمدوا وانتعلوا ، والقوا الخفاف ، والقوا السراويلات ،
وعليكم بثياب أبيكم إسماعيل ، وإياكم والتنعيم وزى العجم ،
وعليكم بالشمس فإنها حمام العرب ، وتمعددوا ، واخشوشنوا ،
واخلولقوا ، واقطعوا الركب ، وانزروا على الخيل نزواً ، وارتموا
الأغراض » .

وواضح فى هذه الرسالة أنها نوع من التعليم للفروسية كما
يقول ابن القيم الجوزية ، فهى لا تصف ملابس الفارس العربى
فحسب بل تحدد طريقة معيشته ، وتصور كيفية ركوبه ،
وترسم خطة قتاله .

فقد أمر عمر بن الخطاب فرسانه بالانتزار والارتداء والانتعال وإلقاء الخفاف لتعتاد الأرجل الحر والبرد فتتصلب وتقوى على دفع أذاهما ؛ وأما قوله : « وألقوا السراويلات » فذلك استغناء عنها بالأزر فهو زى العرب إذ يدل قوله : « وعليكم بثياب أيكم إسماعيل » أن لباسه كان الأزرق والأردية وهي لباس العرب جميعاً الشائع بينهم . ولقد دعا عمر بن الخطاب فرسانه ألا يرتدوا زى الفرسان الأعاجم وهي تلك الملابس الثقيلة التي تعوق الحركة ، وتفقد الفارس سرعة المداورة ودقة المحاورة .

وينصح عمر فرسان المسلمين فيقول : « وعليكم بالشمس فإنها حمام العرب » فإن العرب لم تكن تعرف الحمام وكانوا يتعوضون عنه بالشمس فإنها تسخن وتحلل كما يقول ابن القيم . ولكن هذا القول لا ينفي أن العرب عرفوا الاغتسال . ويعنى عمر بقوله : « وتمعددوا » أى الزموا المعدية وهي عادة معد بن عدنان أب العرب وذلك فى أخلاقه وزيه وفروسيته . وقوله « واخشوشنوا واخلولقوا » أى تعاطوا ما يوجب الخشونة ويصلب الجسم وتهيثوا واستعدوا لما يراد منكم وكونوا خلقاء به جديرين بفعله . ثم قوله « واقطعوا الركب » فإنما أمرهم بذلك لئلا يعتادوا الركوب دائماً بالركاب فأحب أن يعودهم الركوب بلا ركب وأن يتروا على

الخيال نزواً ثم يرموا الأغراض فيكون قصدهم في الرمي الإصابة
لا البعد .

فإذا نظرنا في أسلحة الفارس الجاهلي فسوف نجد أن السيف
أقربها إلى نفسه لأنه كما يقولون يُغنى عن غيره ولا يغنى عنه غيره
ويعمل به عمل السلاح كله ، إذ يذكر ابن هذيل الأندلسي أن
العرب كانت تطعن به كالرمح ، وتضرب به كالعمود ، وتقطع به
كالسكين ، وتجعله سوطاً ومقرعة ، وتتخذه جمالاً في الملاء ،
وسراجاً في الظلمة ، وأنساً في الوحدة ، وجليساً في الخلاء ،
وضجيعاً للنائم ، ورفيقاً للسائر . قال عتبة بن عبد السلمي :
أعطاني رسول الله صلى الله عليه وسلم سيفاً قصيراً فقال : « إن
لم تستطع أن تضرب به فاطعن به طعناً » لذلك اشتهرت السيوف
العربية وكثرت أسماؤها فسموها عطافاً وشاحاً وعصاً ورداء وثوباً .
كذلك أرخ العرب لها ولهجوا بها في أشعارهم . قال الأحنف بن
قيس : ما تزال العرب عرباً ما لبست العماثم وتقلدت السيوف
ولم تعدد الحلم ذلاً .

وقد وصفت العرب السيف الجيد والسيف الرديء . فقد
سأل أعرابي ابنين له عن أحب السيوف إليهما ، فقال أحدهما :

الصقيل الحسام ، الباتر المخدام ^(١) الماضى السطام ^(٢) ،
 المرهف ^(٣) الصمصام ^(٤) الذى إذا هزته لم يكب وإذا
 ضربت به لم ينب . فقال للآخر : فما تقول أنت ؟ فقال :
 نعم السيف نعت ، وغيره أحب إلى دونه . قال : وما هو ؟ قال :
 الحسام القاطع ، والروثق اللامع ، الظمآن الجائع ، الذى إذا
 هزته هتك ، وإذا ضربت به فتك . فقال لهما : أخبراني عن
 أبغض السيوف إليكما ؟ فقال أحدهما : الفُطار ^(٥) الكهام ^(٦) ،
 النابي عن اللحم والعظام ، الذى إذا ضرب به لم يقطع ، وإذا
 ذبح به لم ينجع . فقال الآخر : فما تقول أنت ؟ قال : بشس
 السيف نعت وغيره أبغض إلى منه . قال : وما هو ؟ قال :
 الطبع ^(٧) الدّدان ^(٨) ، المعضد المهان ، الذى إذا ضرب به لم
 يسل الدم وإن أنبت أكرهته .

(١) القاطع .

(٣) الرقيق .

(٥) المتشقق .

(٧) الذى علاه الصدا .

(٢) الحد .

(٤) الذى لا يتثنى .

(٦) الكليل .

(٨) الذى لا يقطع .

كذلك تردد ذكر السيف في أقوال العرب وأمثالهم فهم يقولون : السيف ظل الموت ولعاب المنية . ويكونه بأبي الوجمل . ونتيجة لهذا التقدير نجد العرب يصفون كل جزء من أجزائه ويسمونه اسماً خاصاً به فهذا جوهره وذاك ذبابه وظبته وغراره وعموده . . إلخ

وكذلك فعلوا بغمده .

وقد اشتهرت سيوف عربية إما لدقة صنعها أو شجاعة أصحابها فكان لرسول الله صلى الله عليه وسلم جملة أسياف منها ذو الفقار الذى غنمه يوم بدر ، والعضب وكان أعطاه إياه سعد ابن عباد ، ومنها أيضاً البتار والمخندم والرسوب والحتف .

وقد سأل عمر بن الخطاب يوماً عن أى سيوف العرب أمضى ؟ ف قيل له : صمصامة عمرو بن معد يكرب الزبيدى ، فبعث عمر إلى عمرو أن يرسل إليه سيفه ، فبعث به إليه ، فلما ضرب به وجدده دون ما كان يبلغه عنه ، فكتب إليه فى ذلك ، فرد إليه : إني إنما بعثت إلى أمير المؤمنين بالسيف ولم أبعث إليه بالساعد الذى يضرب به !

يقول طرفة واصفاً سيفاً :

وَأَلَيْتَ لَا يَنْفَكُ كَشْحَى بِطَانَةٍ لِعَضْبٍ صَقِيلٍ الشَّفْرَتَيْنِ مَهْنَدٍ
أَخَى ثَقَّةٍ لَا يَنْثَنِي عَنْ ضَرِيَّةٍ إِذَا قِيلَ : مَهْلًا ، قَالَ حَاجِزُهُ : قَدْ
إِذَا ابْتَدَرَ الْقَوْمَ السِّلَاحَ وَجَدْتَنِي مَنِعًا إِذَا ابْتَلَتْ بِقَائِمِهِ يَدِي
وَتَعْتَقِدُ الْعَرَبُ أَنَّ السَّيْفَ إِذَا سَلَ مِنْ غَمْدِهِ دُونَ أَنْ يَضْرِبَ
بِهِ أَوْرَثَ الْجَبَنِ . وَهُمْ يَعْرِفُونَ خَطَوْرَةَ هَذَا السِّلَاحِ فَمَنْ عَمِلَ بِهِ
بَغَيْرِ حَذَرٍ وَلَا دَرَبَةٍ أَصَابَ أُذُنَ فَرَسِهِ أَوْ عَضْدَهُ ، وَرَبَّمَا أَصَابَ
أُذُنَ نَفْسِهِ أَوْ رَجُلَهُ فَقَطَعَهَا أَوْ أَثَرُ فِيهَا . لِذَلِكَ يَدْرِبُونَ الْفَارِسَ
النَّاشِئَ عَلَى طَرِيقَةِ اسْتِعْمَالِهِ ، وَقَدْ تَطَوَّرَ هَذَا التَّدْرِيبُ حَتَّى
عَصَرَ ابْنُ هَذِيلٍ حِينَ يَقُولُ : وَمَنْ أَرَادَ التَّعْلِمَ بِهِ وَالْتِمْنَ فِي
الضَّرْبِ فَلْيَعْمِدْ إِلَى قَصْبَةِ رَطْبَةٍ أَوْ قَضِيبِ رَطْبٍ ، وَيُثَبِّتْ
أَصْلَهُ فِي الْأَرْضِ ، وَيَتَوَثَّقْ مِنْهُ ، ثُمَّ يَتَبَاعَدُ عَنْهُ ، وَيَجْعَلُهُ عَلَى
يَمِينِهِ وَيَجْرِي فَرَسَهُ مَلءَ فَرْوَجِهِ ، فَإِذَا دَنَا مِنْهُ سَلَ سَيْفَهُ بِسُرْعَةٍ
وَحَذَرٍ وَخَفَةٍ ، وَنَفَحَ ^(١) بِهِ مَا يَحَازِي رَأْسَهُ مِنْ ذَلِكَ الْقَضِيبِ أَوْ
الْقَصْبَةِ أَوْ يَضْرِبُ ذَلِكَ شُرْرًا ^(٢) بِلِبَاقَةٍ وَخَفَةٍ ، يَفْعَلُ ذَلِكَ مَرَارًا
يَقْصُ فِي كُلِّ طَلْقٍ مِنْهُ مَا أَمَكْنَهُ إِلَى أَنْ يَبْقَى قَدْرُ ذِرَاعٍ ، وَيَدُ مِنْ
الْعَمَلِ حَتَّى يَصِيرَ لَهُ عَادَةٌ وَيَخْفُ عَلَيْهِ الْعَمَلُ بِهِ .

(١) النَفْحُ : الضَّرْبُ بِهِ إِلَى خَارِجِ الْيَمِينِ .

(٢) الشُّرْرُ : الضَّرْبُ بِهِ عَنْ يَمِينِ وَشِمَالِ .

ويشرح القدماء طريقة استخدام الفارس لهذا السلاح فيقولون: إذا أراد الفارس العمل به طرف رجله في ركابه حتى لا يظهر منها شيء عن مقدم الركاب بحسب ما يمكن اعتياده عليه ، ويضرب بالسيف نفحاً وشزراً إلا ما كان قبالة وجهه فيكون حينئذ أشدّ حذراً على نفسه وفرسه ، ويعتلى يده عند الضرب به إلى الخارج ليكون آمناً ، ويطرح مقابله عن يمينه أبداً في كل حال .

والرمح من أسلحة الفارس ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« عليكم بالقنا والقسي فيها نصر نبيكم وفتح لكم في البلاد » .
وسئل أعرابي عن أحب الرماح إلى نفسه فقال : المارن المثقف ، المقوم المخطف ، الذي إذا هزته لم يتعطف وإن طعنت به لم يتقصف . ثم سئل عن أبغض الرماح إليه فقال : الأعصل عند الطعان ، المثلّم السنان ، الذي إذا هزته انعطف ، وإذا ضربت به انقصف .

وللرمح أسماء عدة تبعاً لأوصافه فهو صعدة إذا كانت العصا قد نبتت مستوية وهو لدن ومارن إذا كان ليناً ، وسمهري إذا كان شديداً ، وصدق إذا كان صلباً . وكذلك فصل العرب

أجزائه وأعطوا لكل جزء اسما .

وتطور تدريب الفرسان على الطعن بالرمح على مر التاريخ العربي . يقول ابن هذيل فيمن أراد أن يركب جواده ورمحه معه إنه يأخذ رمحاً يمينه وعنانه بشماله مع قربوس^(١) سرجه ، ويضع زُج رمحاً بالأرض ويبعد منها قليلاً ، ويضع صدر قدمه اليسرى في ركابه الأيسر ثم يعتمد على الرمح ويرفع نفسه على فرسه وينهض وهو يدير الرمح على كفل الفرس إلى الجانب الأيمن حتى يستقل بسرعة ثم يضع الرمح في يساره مع العنان ويسوى ثيابه وآلته بيمينه ثم يصرف رمحاً إلى يمينه . ولا ينبغي أن يتعرض الرجل لأخذ رمحاً من الأرض وهو راكب فربما وطئه الفرس فكسره أو ضربه فأبعده عنه ، وحين يتزل بالرمح فهو يأخذه بيساره ويضع زجه بالأرض عند يده فرسه اليسرى ويأخذ القربوس بيده اليمنى ثم يتزل وحين يصير إلى الأرض يأخذ رمحاً بيمينه بسرعة لئلا يدور عليه الفرس فيحطمه أو يصيب الأرض بسنانه أو يعقر أحداً .

وحين يدرب الفارس على العمل بالرمح يضع رديئة وهي

(١) قربوس السرج : حنوه .

عود أو شبهه قائما بالأرض قدر ارتفاع الفارس ، ويتوثق من
أسفله ، ويشد في أعلاه حلقة أو حبلا ملتويا يشبه الحلقة ،
ثم يتباعد عنه ويجرى فرسه ملء فروجه فإذا قرب من تلك الرديئة
تأبط رمحه وأخرج منه عن إبطه بقدر ما يخف عليه حملة
وتحتمله قوته ثم يأخذ سنانه تلك الحلقة ، ثم يلوى رمحه بسرعة
ليخلص السنان من الحلقة .

ومن أسلحة الفارس القوس والنبل . قال صلى الله عليه
وسلم : « منتهى المؤمن القوس والنبل » والقسي جنسان : قوس اليد
وهي العربية ، وقوس أفرنجية لم يعرفها الجاهليون . وكان الشنفرى
من أوصف الشعراء للقسي بشهادة الخطيئة والفرزدق . قال :

وإني كفاني فقد من ليس جازيا

بحسنى ولا فى قربة متعلل

ثلاثة أصحاب فؤاد مشيع

وأبيض أصليت وصفراء عيطل

هتسوف من الملس المتون يزينها

رصائع قد نيطت إليها ومحمل

إذا زل عنها السهم حنت كأنها

مرزاة ثكلى ترن وتعول

كذلك عرف الجاهليون الدرع وهو القميص المتخذ من الزرد « والبيضة » وهى ما يلبس فى الرأس « والمجن أو الترس أو الدرقه » وهى أسماء ثلاثة لشيء واحد يصنع من الجلد يتقى الفرسان بها وقع السيوف .

وقد عرف العرب اللواء يتخذونه فى حروبهم يلتفون حوله ويستدلون به على قبائلهم حين يشتد القتال ويختلط الفرسان .

بقى بعد ذلك أهم عون للفارس فى القتال وهو فرسه . وقد قدر العرب الجواد تقديرا كبيرا ، ونظرة واحدة فى المكتبة العربية توضح إلى أى مدى اهتم المؤلفون بتسجيل تاريخ الأفراس وأنسابها ككتاب ابن هشام الكلبي فى نسب الخيل فى الجاهلية والإسلام وأخبارها ، وكتاب ابن الأعرابي فى أسماء الخيل وفرسانها ، والفصول الطويلة التى كتبها الجاحظ عنها فى كتاب الحيوان ، ثم ما جاء بعد ذلك عنها فى كل مؤلف يتعلق بتاريخ العرب وأحوال معيشتهم .

ولم تكن العرب تعد المال فى الجاهلية إلا الخيل والإبل ، وكان للخيل عندها مزية على الإبل فلم تكن تعدل بها غيرها ،

ولا ترى القوة والمنعة بسواها ، لذلك اهتم العرب بمعرفة خصائص هذا الحيوان ودرسوه دراسة طبيعية ونفسية . يقول الجاحظ :
الفرس من طبعه الزهو في المشى ويحب سائسه ويعجبه راكبه ،
ولا يحب الأولاد ، وهو غيور ويعرف المصيبة . كذلك وصفوا
أعضائه وما يستحب منها خلقاً ولوناً . سأل عمر بن الخطاب
العبسيين : أى الخيل وجدتموه أصبر في حروبكم ؟ قالوا :
الكميت .

وقال امرؤ القيس واصفاً جواده :

كميت يزل اللبد عن حال متنه

كما زلت الصفواء بالمتنزل

وقد وضعت العرب لعناق الخيل أسماء تدل على عتقها وكرمها
في أوصاف مخصوصة فمن ذلك « الطرف » وهو الحسن الطويل
« واللهوم » وهو الجيد الحسن الخلق الصبور على العدو
« والنهد » العظيم الشديد الأعضاء وغير ذلك من أسماء تشير إليها
كتب الخيل .

وكان العربي في صباه يتعلم ركوب الخيل ليصبح فارساً في
شبابه ويقول ابن هذيل واصفاً طريقة هذا التعليم : « واعلم

أرشدك الله أن أصل الفروسية الثبات وأن مبتدأها إنما هو الركوب على العرى من الخيل ، ومن لم يتدرب أولاً على عرى لم يستحكم ثبوته في الغالب ، بل يكون أبداً قلقاً في سرجه ، لا سيما عند نحيبه وركضه ، فلا يؤمن سقوطه إن اضطرب فرسه أو أصابته هنة . ثم يقول : « فمن أراد التفرس على العرى فليلبس ثياباً خفافاً مشهرة ، ويلجم فرسه ، ويشد عليه "جل" صوف أو شعر وثيق الحزام واللبب ، فإن الراكب على الجمل أثبت منه على المجرد ، ويقف على يسار فرسه عند منكبه ويمسك عنان بحامه بيده اليسرى . وإن أخذ العرف مع العنان فلا بأس به ، ويشب بسرعة وخفة ، فإذا استوى على ظهره جمع يديه في العنان عند كاهل الفرس ، ونصب ظهره ، ولزم بفخذه موضع دفتي السرج من ظهر الفرس ، ويتقدم قليلاً ، فالتقدم أحسن على العرى من التأخر ، ويمد ركبتيه وساقيه وقدميه إلى كتفي الفرس حتى يمكنه أن ينظر إلى إبهامي قدميه ، وليكن اعتماده على اللزوم بفخذه فبذلك يحوز الثبات » . وكل من لزم ركوبه غير ذلك فلا ركوب له ولا ثبات .

وقد اشتهرت بعض الأفراس بشهرة فرسانها مثل العطاف

فرس عمرو بن معد يكرب الزبيدي ، والهطال فرس زيد الخيل
ابن مهلهل الطائي وفيه يقول :

أقرب مربوط الهطال إني أرى حرباً تلقح عن حيال
أسويه بمكنف إذ شئتونا وأوتره على جلّ العيال
وقد سمى زيد الخيل لكثرة خيله ، فمن عتاقها غير الهطال :
الكامل والكميت والورد ولاحق وذعول . كما اشتهر البريت
فرس ابن قبيصة الطائي واليحموم فرس النعمان بن المنذر .
وفي كتاب ابن الأعرابي في أسماء الخيل نجده يذكر قوائم كثيرة
لأسماء خيول القبائل ، كل قبيلة على حدة ، فتلك أسماء خيل
بنى هاشم ثم خيل قريش وخيل بنى أسد وخيل بنى ضبة وخيل
بنى سليم وخيل هوازن . . . إلى آخر سلسلة القبائل العربية .

وتتضح عناية العرب بخيلها إذا تصفحنا الكتب التي سجل
فيها مؤلفوها أنساب الخيل ككتاب ابن هشام الكلبي إذ نشعر
بقيمة الفرس وحرص الجاهلي على تسجيل نسبه ليقدّر أصالته ،
فداحس ذلك الفرس المشهور في أيام عبس وذبيان هو ابن
ذئ العقال وأمه جلوى ، والغبراء خالة داحس وأخته لأبيه
كما ذكر ابن الكلبي . وقد روى لأحد بنى عامر بن صعصعة

أبياتاً يصور فيها فضل الخيل على قومه . يقول فيها :

بنى عامر مالى أرى الخيل أصبحت
بطانا وبعض الضمر للخيل أفضل
بنى عامر إن الخيول وقاية
لأنفسكم والموت وقت مؤجل
أهينوا لها ما تكرمون وباشروا
صيانتها ، والصون للخيل أجمل
متى تكرموها يكرم المرء نفسه
وكل امرئ من قومه حيث ينزل

ويروى أن أحد فرسان العرب الجاهليين وهو عبدة بن
ربيعة التميمي قد طلب منه أحد ملوكهم فرسا تسمى سكاب
فمنعها منه وقال :

أبيت اللعن إن سكاب علق	نقيس لا يعار ولا يباع
مفداة مكرمة علينا	يجاع لها العيال ولا تجاع
سليلة سابقين تناجلاها	إذا نسا يضمهما الكراع
ففيها عزة من غير نفسر	يحيدها إذا حر القراع

فلا تطمع - أبيت اللعن - فيها ومنعكها بشئ استطاع
وكفى تستقل بحمل سيفي وبى ممن تهضمنى امتناع
وحولى من بنى قحطان شيب وشبان إلى الهيجا سراع
إذا فزعوا فأمرهم جميع وإن لاقوا فأيديهم شعاع

فالفارس يتحدى الملك ويعلن أنه وقبيلته سيحاربون في سبيل
هذا الفرس حتى لا يأخذه الملك . وقد عرف العرب نفسية الخيل
وأخلاقها وخاطبوها مخاطبتهم للآدمى . يقول عنتره مصورا حالة
جواده ونفسيته أثناء المعركة .

فازور من وقع القنا بلبانه وشكى إلى بعسبرة وتحمحم
لو كان يدرى ما المحاورة اشتكى ولو كان لو علم الكلام مكلمى

وإذا كان قد تحدثنا عن عدة الفارس : ملابسه وسلاحه
وفرسه فقد بقى أن نعرف أخلاقه وتقاليده ومثله وعلاقاته بمجتمعه
وعلاقة المجتمع به .

فلو نظرنا في أخلاقه فسنجدها الأخلاق التى يتصف بها
العرب جميعا وإن امتاز الفارس فيها امتيازًا خاصًا . فالفارس
شجاع وكريم وعزيز النفس ، يحترم المرأة ويدافع عنها ، ويجير

المستجير ، ويغيث الملهوف ، ويعمل على رفع الظلم عن
المظلومين ، وهو يخلص لعشيرته القرية قبل إخلاصه لقبيلته
الكبيرة فإذا تعارضت مصالحهما انضم في أغلب الأحيان إلى
جانب عشيرته القرية ، فهي أولى بإخلاصه وحمايته . ثم هو
بعد ذلك يشرب الخمر ويلهو بالنساء ويجد في ذلك وفي تبذير
ماله عليهما موطن فخر وزهو . وهو شاعر وخطيب يدافع عن
قبيلته بلسانه كما يدافع عنها بسيفه ، ويفتخر بمآثرها في شعره ،
ويردد أمجادها في قصائده . وقد أحب كثير من فرسان الجاهلية
فصدحت أشعارهم بأعذب نغم ، وكشفت أغانيهم عن أرق
العواطف وأنبل الأحاسيس .

وإذا أردنا أن نمثل لأخلاق الفرسان فسنجد أن افتخارهم
بالشجاعة يشمل معظم أشعارهم وأقوالهم . فهم يتمادون بالموت
في القتال ويتهاجون بالموت على الفراش ويقولون فيه « مات
فلان حتف أنفه » وقد جاء أن أعرابيا بلغه قتل أخيه فقال :
« إن يقتل فقد قتل أبوه وأخوه وعمه إنا والله لا نموت حتفا ولكن
قعصا بأطراف الرماح ، وموتا تحت ظلال السيوف » .

قال عنثرة :

بكرت تخوفنى الحتوف كأننى

أصبحت عن غرض الحتوف بمعزل

فأجبتها إن المنية منهل

لا بد أن أسقى بكأس المنهل

فاقنى حياءك لا أبالك واعلمى

أنى امرؤ سأموت إن لم أقتل

ولم يعتمد فرسان القبيلة الواحدة فى حروبهم على أعدادهم

بقدر ما كانوا يعتمدون على شجاعتهم وقدرتهم فى القتال ،

فقد قيل لعنثرة : كم كنتم يوم الفروق ؟ قال : كنا مائة

كالذهب لم نكثر فنكل ولم نقل فنذل .

وكما افتخر العرب بشجاعتهم افتخارا عظيما افتخروا أيضا

بقدرتهم وكفاءتهم كفرسان مدربين . قال ربيعة بن مقروم

الضبي :

ولقد شهدت الخيل يوم طرادها

بسليم أوظفة القوائم هيسكل

فدعسوا نزال فكنت أول نازل

وعلام أركبه إذا لم أنزل

وَأَلَدَ ذِي حَنْقٍ عَلَى كَأَنَّمَا
تَغْلَى عِدَاوَةَ صَدْرِهِ فِي مَرَجَلٍ
أَرْجَبْتَهُ عَنِّي فَأَبْصُرَ قَصْدَهُ
وَكُوَيْتَهُ فَوْقَ النُّوَاطِرِ مِنْ عَلٍ

وقد اشتهر من فرسان الجاهليين كثيرون ضربت بشجاعتهم
الأمثال منهم خالد بن جعفر بن كلاب العامري ، وعتيبة بن
حارث ، وربيعه بن مكرم وعنزة العبسي وملاعب الأسنة
وابن جذل الطعان ، وزيد الحيل ، وزيد الفوارس وعامر بن
الطفيل . والملاحظ أن بعض هؤلاء الفرسان لقبوا بألقاب مشتقة
من أسماء السلاح كملاعب الأسنة أو بشهرتهم في استعمال
أسلحتهم كابن جذل الطعان . وسوف نترجم لبعضهم في هذا
الكتاب .

وكما اشتهر الفرسان بالشجاعة اشتهروا بالكرم أيضا . يقول
عروة أحد فرسان الصعاليك :

سلي الطارق المعتر يا أم مالك إذا ما أتاني بين قدرى ومجزرى
أيسفر وجهي أنه أول القرى وأبذل معروفى له دون منكر

وأخبار سخاء هذا الفارس صفحة رائعة من صفحات الخلق

العربي في الإيثار وبذل ما في اليد للمحتاج .

يقول عمرو بن كلثوم مصورا كرم قبيلته وشجاعة أفرادها

نعم أناسنا ونعف عنهم ونحمل عنهم ما حملونا

نطاعن ما تراخى الناس عنا ونضرب بالسيوف إذا غشنا

ونلمح خصائص خلقية أخرى للفارس الجاهلي حين

يقول :

أثني على بما علمت فيأني سمح مخالفتي إذا لم أظلم

فإذا ظلمت فإن ظلمي باسل مُر مذاقته كطعم العلقم

وإذا شربت فيأني مستهلك مالي وعرضي وافر لم يكلم

وإذا صحوت فما أقصر عن ندى وكما علمت شمائلي وتكرمي

فمن صفات الفارس إذن أنه يشرب الخمر ويبذل ماله في

شراؤها لأنها علامة من علامات الرجولة والثراء ، كما أنها علامة

من علامات السيادة والكرم .

والفارس العربي حلیم سمح الخلق إلا إذا ظلم فعندئذ يصبح

ثورة تدمر ظالميه كما يقول عنتره . ومن الحكم المشهورة لدى

الجاهليين « إذا ملكت فاسجع » ، والإسجاح حسن العفو .

وقد ترثم العرب بهذه الخلة الخلقية ، واعتبروها من صفات
الرجل العظيم . يقول المهلهل الفارس المشهور في إحدى مراثيه
لأخيه. كليب :

وإنك كنت تحلم عن رجال وتعفو عنهم ولك اقتدار
وتمنع أن يمسهم لسان مخافة من يحير ولا يجار

ونسلم معن بن أوس يكظم غيظه لإساءة بعض الناس له
يهم من أقاربه فيبلغ القمة في الحلم حين يقول :

وذى رحم قلمت أظفار ضغنه

بحلمى عنه وهو ليس له حلم

يحاول رغمى لا يحاول غيره

وكالموت عندى أن يعرّ به الرغم

وإن أعف عنه أغض عينا على قذى

وليس له بالصفح عن ذنبه علم

صبرت على ما كان بينى وبينه

وما يستوى حرب الأقارب والسلام

ويقول الحارث بن ويلة الجرمى يقتل بعض أقاربه أخاه :

ومى هم قتلوا أميم أخى فإذا رميت يصيبنى سهمى

فلئن عفوت لأعفونُ جلالاً ولئن سطوت لأوهين عظمى
ورغم أن الفارس العربى حلیم صابر إلا أنه يأبى الضم
ويرفض الذل والهوان . يقول عمرو بن كلثوم :
إذا ما الملك سام الناس خسفاً أبينا أن نقر الذل فينا
ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا
ويقول عنتره :

لا تسقنى ماء الحياة بذلة بل فاسقنى بالعز كأس الحنظل
والفارس العربى صادق وفى ، يكره الغدر ، ويأبى نقض
المواثيق ، وكان العرب يشهرون من لا يعرفون بالعهد فى سوق
عكاظ ، فيرفعون لهم ألوية ليعرفهم الناس بغدرهم فلا يعاملوهم .
يقول قطبة بن أوس يتنّى الغدر عن نفسه وعن قومه :

أُسْمَىَّ ويحك هل سمعت بغدرة

رفع اللواء لنا بها فى مجمع

إنا نعرف فلا نريب حليفنا

ونكف شح نفوسنا فى المطعم

وتاريخ القروسية الجاهلية . يحفظ كثيراً من أمثلة الوفاء
بالوعد وتمسك الفارس العربى بكلمته مهما وقع عليه من غبن

بسبب ذلك ، فهذا الحارث بن عباد يأسر عدى بن ربيعة المشهور بالمهلل قاتل ولده بجير في حرب البسوس وكان لا يعرفه ، فيسأله عن مكان المهلهل فيقول له : أتطلق سراحي إن دلتك عليه ؟ فيعده بهذا ، فيكشف عن شخصيته ويخبره أنه هو المهلهل ، ويضطر الحارث أن يطلقه وفاء بوعده ، ويكتفى بجز ناصيته .

والفارس العربي يحمي الضعيف ويدفع عنه الظلم ، ويتمثل هذا الخلق في حماية الجار وهو ذلك الشخص الذي ينزل بجوار آخر طالبا حمايته فإذا قبل جواره صار واحدا من أفراد أسرته وقبيلته وسمى حليفا أو مولى أو جارا ، له كل ما لأفراد القبيلة من حقوق . وقانون الصحراء يأبى على العربي رفض الجوار بل إنه ليغضب إذا رحل عنه جاره وتنازل عن حمايته له . وكثيرا ما شبت الحرب وفتكت بالقبائل فتكا ذريعا لأن جار قبيلة قد أهين أو اعتدى عليه وهذا ما وقع في حرب البسوس حين رمى كليب ناقة البسوس جارة جساس بسهم في ضرعها فما كان من جساس إلا أن قتل كليبا رغم أنه زوج أخته .

وكانت حماية الجار دليلا على عظم شأن القبيلة الحامية

وشهرة فرسانها وقوة نفوذها بين القبائل .

وقد بلغت تقاليدهم في حماية الضعفاء حد حماية الوحوش وإجارة الطيور رحمة بها وإحساسا بتقديرهم وشأو فروسياتهم ، بل إن منهم من كان يجير من الإنس والجن كما فعل عامر بن الطفيل مع الأعشى حين استجار الأخير به ، فقال له : أتجيرني من الإنس والجن ؟ قال : أجرك . قال : ومن الموت ؟ قال : نعم ! قال : وكيف تجيرني من الموت ؟ قال : إن مت وأنت في جوارى بعثت إلى أهلك الدية . قال : الآن علمت أنك قد أجرتني من الموت .

ومن مظاهر حماية الضعيف تلبية الفرسان لنداء المستغيث ولو كان ظالما . وكان يعد من نقص المروءة أن يسأل الفارس عن السبب الذي دفع المستغيث أن يناديه أو اللاجئ أن يطلب عونه قبل أن يمد يد المساعدة له ، وهذا دليل الشجاعة الفائقة التي لا يحدها حد ولا يقيدها قيد .

قال الخطيئة يصف فرسانا :

إذا ما دعوا لم يسألوا من دعاهم

ولم يمسكوا فوق القلوب الخوافق

وطاروا إلى الجرد العتاق وألحموا
 وشدوا على أوساطهم بالمنساق
 أولئك آباء الغريب وغاة الصريخ (م)
 ومأوى المرملين الدرادق
 أحلوا حياض المجد فوق جباههم
 مكان النواصي من وجوه السوابق

وقد أجل الفارس الجاهلي المرأة أيما إجلال ، ودافع عنها
 لسبيين : الأول أنه دفاع عن العرض والشرف والآخر أنها تمثل
 نوعا من حماية الضعيف المتفوض الجناح . ويسمى الفارس
 المدافع عن النساء والأعراض حامى الذمار ، وحماية الذمار
 صفة من الصفات التي يحب الفارس الجاهلي أن يمدح بها .
 يقول زهير مادحا :

حامى الذمار على محافظة ال (م)
 جلى أمين مغيب الصدر

ويقول عمرو بن كلثوم :
 على آثارنا بيض كرام نحاذر أن تفارق أو تهونا
 وكان العار الذي يلحق العربي أن تؤسر نساؤه أو يهمل في

الدفاع عنها : وفي هذا يقول الشاعر محرضاً قومه على القتال
دفاعاً عن شرف المرأة :

من فر منكم فرّاً عن حريمه وجار وفر عن نديمه

والفارس العربي لا يهتك ستر امرأة أو يتعرض لها بسوء
أو يرفع نظره إلى وجهها يقول عنبرة :

وأغض طرفي إن بدت لي جارتى

حتى يوارى جارتى مأواها

وتقول الحنساء في رثاء أخيها صخر :

لم تراه جارة يمشى بساحتها لربية حين يُنحلي بيته الجار
تلك هي أخلاق الفارس الجاهلي ومثله .

ظاهرة أخيرة يلحظها القارئ في أخبار الجاهليين تتعلق
بمفهوم السيادة وعلاقة هذا المفهوم بالفروسية . لقد ارتبطت
هذه السيادة ارتباطاً شديداً بالقيم التي تضيفها صفة الفروسية
على السيد ، فالفارس عربي حر له مكانته في القبيلة ، بل له
المكانة الأولى والمفضلة فيها ، فهذا عامر بن الطفيل عندما
يستسلم لربيعة بن مكرم في معركة من المعارك ويجز ربيعة

ناصبته تخلعه القبيلة من رياستها وترفض أن يتولى قيادتها بعد ذلك مدة طويلة حتى يساعده ربيعة على استعادة مكانته ، كما أن العبد يستطيع أن يتحرر ويتولى مكان الصدارة في الحروب ويصبح سيدا من سادات القبيلة إذا استطاع أن يوفى بمطالب الفروسية وأن يحقق النصر والكرامة لقبيلته كما فعل عنزة :

لهذا اختلفت مكانة الفارس في المجتمع الجاهلي عن مكانته في المجتمع الفارسي المعاصر له مثلا ، فالفارس في الدولة الفارسية جندي وتابع للملك أو للأمير يأخذ أجره ويقاتل في سبيله ، وقد يكون هذا الفارس مؤجرا أو عبدا مشترى فيظل مقاتلا مخلصا حتى تضعف مكانة الملك أو الأمير أو تقل نقوده فيخرج عليه أو يلجأ إلى منافسه أما الفارس العربي فهو أب يدافع عن أسرته ونعمه ، وابن يدافع عن والديه وإخوته ، وشيخ يدافع عن كيان قبيلته ووجودها . وكل مقاتل سيد من سادات مجتمعه الصغير أو مجتمعه الكبير ، يرتبط مصيره بمصير هذا المجتمع ، وارتبط وجوده بوجود مجموع هذه القبيلة ، ففي فنائها ضياع له ، وفي قوتها تمكن لشخصيته القبلية .

وأخيرا وبعد كل هذه الفضائل التي عرفناها عن الفروسية

الجاهلية نقول إنها لا تخلو من العيوب والنقائص شأنها في هذا شأن الفروسية الغربية فيما بعد . فرغم أن الفرسان الجاهليين أشادوا بالمرأة في شعرهم ودافعوا عن شرفها ، وضحوا بحياتهم في سبيل استردادها من سبي ، أو حمايتها في ظعن ، فقد ظلت ضعيفة الجانب مهضومة الجناح ، لا يرفعون لها قدرا أو يحترمونها جنسا . فهم يسيئون بها الظن ويرمونها بالغدر والحيانة بل يدفنونها حية تشاؤما بها أو تخلصا من عارها .

ولم يكن الدفاع عن المرأة دفاعا مطلقا ، أى أن العربي يدافع عنها سواء كانت من قبيلته أو من غيرها ، وإنما كان يدافع عن المرأة من قبيلته أو الجارة لها ، أما نساء القبائل الأخرى وخاصة القبائل المعادية فكانت حلالاً له .

كذلك لم تنتزه فروسيته عن غلاظة الطبع والعنجهية والكبرياء وخشونه المظهر وذلك كله بسبب طبيعة الصحراء والحياة التي يحيونها كذلك لم تنتزه عن التكالب على الأسلاب والغنائم ، والفتك بالفرسان في سبيل مغنم تافه ، أو مسلب ضئيل .

وقد لجأ بعض الفرسان إلى الخداع والحيل الدنيئة ، والغدر

والحيانة إذ أن قانون الصحراء يفرض عليهم اللجوء إلى هذه الوسائل ليحافظوا على أرواحهم ، ويبقوا على وجودهم في هذه البيئة المتصارعة ، والظروف الصعبة الشائكة ، ولكن كل هذا لا ينفي أن الفروسية الجاهلية كانت من فضائل العرب التي رفعت من مكانتهم ، وسمت بأخلاقهم لما أُجبل عليه الفرسان من بطولة وفداء في سبيل مثل وأخلاق عالية .

عمرو بن يكرب

هو أحد الفرسان الشعراء الذين اشتهروا في النصف الثاني من القرن السادس للميلاد قبيل الإسلام^١. وكنيته أبو ثور ، واسمه عمرو بن معد يكرب وينتهي نسبه إلى زيد فهو فارس قحطاني . عن أبي عبيدة قال : كان عمرو بن معد يكرب فارس اليمن وهو متقدم على زيد الخيل أحد فرسان العرب المشهورين في الشدة والبأس .

وكانت شجاعته معترفا بها بين العرب ، بل كان عمر ابن الخطاب يعبه بألف فارس وإن كان لا يثق بحسن تصرفه في قيادة الجيوش ، فعندما بعثه إلى سعد بن أبي وقاص كتب إليه يقول : « أمددتك بألئى رجل : عمرو بن معد يكرب وطلحة الأسدي ، فشاورهما في الحرب ولا تولهما شيئا ؛ فحارب أبو ثور مع سعد وأبلى أحسن البلاء

ويمثل أبو ثور الفارس العربي البدوي في صفاته وحياته

خير تمثيل . وقد ذكرت الروايات أنه دخل الإسلام في السنة التاسعة أو العاشرة من الهجرة .

وأبوه هو معديكرب بن عبد الله بن عمرو من سادات بني زبيد وكان من الفرسان المعدودين في الجاهلية ، وكان لا يتوسم خيراً في ولده إذ كان عمرو شاباً لاهياً عابثاً أكولاً منصرفاً إلى الشراب ، لذلك لقبه والده بالمائق أى الأحمق الذى لا يصلح لشيء . وفي يوم بلغ بني زبيد أن قبيلة خثعم سوف تغير عليهم فجمع معد يكرب بني زبيد ، وتأهبت القبيلة لصدهم . ودخل عمرو على أخته فقال : اشبعينى إن غدا الكتبية ! فلما جاء والده أخبرته ابنته بقول عمرو فقال : هذا المائق يقول ذلك ؟ قالت : نعم . قال : فسليه ما يشبعه . فسألته ، فقال : فرق من ذرة وعتر رباعية . فصنع له ذلك وذبح العتر وهبىء له الطعام فجلس حتى أتى عليه كله ثم نام . وجاء الصباح : وأتتهم خثعم مغيرة فالتقت بها زبيد واشتد القتال فاستيقظ عمرو فرفع رأسه ونظر فرأى لواء أبيه مرفوعاً فعاد ونام . وبعد فترة رفع رأسه ثانية ونظر فإذا بلواء أبيه قد نزل فهب مندفعاً نحو القتال كالنار المستعرة فلقى والده راجعاً منهزماً

فقال له : انزل عن فرسك فاليوم ظلم ، فقال له : إليك يا مائق . فقال له بنو زبيد : خله أيها الرجل وما يريد فإن قتل كفيت مؤنته وإن ظهر فهو لك . فألقى إليه سلاحه فركب ورمى خشع بنفسه حتى خرج من بين أظهرهم ثم كر عليهم وفعل ذلك مراراً وحملت عليهم بنو زبيد فانهزمت خشع وقهروا . فلقب عمرو يومئذ بنارس زبيد .

وقد جاء في أخبارهم عمرو أنه جاء عمر بن الخطاب وهو يغدى الناس وقد جفن عشرة عشرة فأقعه عمر مع عشرة ، فأكلوا ونهضوا ولم يقم عمرو فأقعه معه تكملة عشرة حتى أكل مع ثلاثين ثم قام فقال : يا أمير المؤمنين إنه كانت لي مأكلة في الجاهلية منعى منها الإسلام ، وقد صررت في بطنى صرتين وتركت بينهما هواء فسدّه . قال عمر : عليك حجارة من حجارة الحرة فسدّه به يا عمرو .

ويظهر أن أبا ثور لم يستطع أن يمتنع عن كل مأكلة الجاهلية ، إذ أنه لم يمتنع عن شرب الخمر رغم معرفته برأى الإسلام فيها ، ويظهر أيضاً أن سعد بن أبي وقاص غفر له شربه عندما علم بذلك اعترافاً بما قام به في حرب القادسية إذ

جاء أنه قال حين قيل له إن عمرو بن معد يكرب قد وقع في
الحر : لقد كان له موطن صالح يوم القادسية عظيم الفناء
شديد النكاية للعدو .

وقال الإخباريون في أخبار شربه أن صديقة عينة بن
حصن نزل عليه زائرا وهو في الكوفة وكانا رفيق شراب في
الجاهلية . فوقف عينه ببابه ونادى : أى أبا ثور ، اخرج
إلينا . فخرج إليه مؤتظرا وقال له مرحبا : أنعم صباحا أبا مالك .
فقال عينه : أو ليس قد أبدلنا الله تعالى بهذا السلام عليكم .
فقال عمرو : دعنا مما لا نعرف ! إنزل فإن عندي كبشا
سياحا . فترل فعمد إلى الكبش فذبحه وألقاه في قدر وطبخه
حتى إذا نضج جاء بجفنة عظيمة فرد فيها فأكفأ القدر عليها
فقعدا فأكلاه . ثم قال له : أى الشراب أحب إليك اللبن أم
ما كنا نتنادم عليه في الجاهلية . قال أو ليس قد حرمها الله —
جل وعز — علينا في الإسلام . قال عمرو : أنت أكبر سنا
أم أنا ؟ قال عينه : أنت ! فقال عمرو : فأنت أقدم إسلاما
أم أنا ؟ قال : أنت ! قال عمرو : فلانى قد قرأت ما بين دفتي
المصحف فوالله ما وجدت له تحريما إلا أنه قال « فهل أنتم

منتهون « فقلنا : لا ، فسكت وسكتنا ، فقال عيينه له : أنت
أكبر سنا وأقدم إسلاما فجلسا يتناشدان ويشربان ويذكران
أيام الجاهلية حتى أمسيا . فلما أراد عيينه الانصراف قال
عمرو : لئن انصرف أبو مالك بغير عطاء إنه لوصمة عار .
فأمر بناقة عظيمة له وأربعة آلاف درهم ، فرفض عيينه المال
وأخذ الناقة وانصرف وهو ينشد :

جزيت أبا ثور جزاء كرامة
فنعم الفتى المزدار والمتضيف
قريت فأكرمت القرى وأفدتنا
تحية علم لم تكن قط تعرف
وقلت حلال أن تدير مدامة
كلون انعقاق البرق والليل مسدف
وقدمت فيها حجة عربية
ترد إلى الأنصاف من ليس ينصف
وأنت لنا والله ذى العرش قدوة
إذا صدنا عن شربها المتكلف
يقول أبو ثور أحل حرامها
وقول أبي ثور أسد وأعرف

ويظهر أن عمراً كان رقيق الدين كما تدل هذه الرواية ،
 إذ أنه يفتى في الدين بغير حرج ويحلل المحرم ، كما أنه ادعى
 مرة معرفته بالقرآن وهو يجهله وكان ذلك بعد أن أصاب
 المسلمون أموالاً كثيرة في معركة القادسية ، فأخذ سعد بن أبي
 وقاص نصيب ديوان المال وهو خمس الغنيمة ووزع البقية على
 جند المسلمين فأصاب الفارس ستة آلاف درهم وأصاب الراجل
 ألفين . وأخذ أبو ثور نصيب الفارس وبقي بعد ذلك مال كثير
 لم يوزع . فكتب سعد إلى عمر يسأله ما يفعل بهذا المال .
 فأرسل إليه عمر أن يوزعه على حفظة القرآن في الجيش . فدعاهم
 سعد فجاءوا وبينهم أبو ثور . فدهش سعد من وجوده بينهم
 وهو يعلم أنه لا يحفظه فسأله : ما معك من كتاب الله ؟ فقال
 عمرو : إني أسلمت باليمن ثم غزوت فشغلت عن حفظ القرآن .
 قال سعد : مالك في هذا المال نصيب . فغضب أبو ثور
 وأنشد :

إذا قتلنا ، ولا يبكي لنا أحد

قالت قريش : ألا تلك المقادير

نعطى السوية من طعن له نفذ

ولا سوية إذ تُعطى الدنانير

فكتب سعد إلى عمرو بن الخطاب يخبره بذلك ، فأذن له
 عمر بأن يعطيه على بلائه في القتال فأعطاه ألفي درهم . وكان
 عمر يعرف قدر أبي ثور دائماً ويعامله على أنه فارس من فرسان
 الجاهلية المشهورين وخاصة عندما كتب إليه سعد بن أبي وقاص
 يشي على فروسية أبي ثور وشدة في قتال الفرس . وكان عمر
 قد رصد له ألفين من الدراهم فقال له عمرو : يا أمير المؤمنين
 ألف ههنا وأوماً إلى شق بطنه الأيمن وألف ههنا وأوماً إلى شق
 بطنه الأيسر فما يكون ههنا وأوماً إلى وسط بطنه . فضحك عمر
 وزاده خمسمائة .

ومن دلائل رقة دين أبي ثور أيضاً أنه كان من المرتدين
 بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم وناصر الأسود العنسي الخارج
 على الإسلام ، فلما أخفقت ثورة العنسي واستسلم أبو ثور
 لم يشأ الخليفة قتله بل أحب أن يعيده إلى الإسلام فقال له
 مؤنباً : أما تخزي يا عمرو ! إنك في كل يوم مهزوم أو مأسور
 لو ناصرت هذا الدين لرفعك الله . ثم نخل سبيله ، وعاش عمرو
 بقية حياته على هامش الدين .

وقد بارز عمرو أشهر فرسان الجاهلية وكان يقول : لو سرت

بظعينة وحدى على مياه معد كلها ما خفت أن أغلب عليها
 ما لم يلقى حراها أو عبداها فأما الحران فعامر بن الطفيل وعتيبة
 بن الحارث بن شهاب ، وأما العبدان فأسود بنى عبس يعنى
 عنزة والسليك بن السلكة ، وكلهم قد لقيت .

وقد اشتهر سيف عمرو الذى كان يسمى بالصمصامة
 وهو السيف الذى طلب عمر بن الخطاب رؤيته فأرسله له فلم
 يعجب الخليفة فأرسل إليه عمرو قائلا : إنما بعثت إلى أمير
 المؤمنين بالسيف ولم أبعث إليه بالساعد الذى يضرب به .

وكان عمرو ذا قوة جسدية خارقة ظهرت خاصة فى موقعة
 القادسية فكان يأسر الفارس ويلوى رقبته بيديه فيقتله ثم يذبحه
 ويقول إنما الفارس تيس بعد أن يلقى يبرك ! .

وجاء أنه بعد أن عبر نهر القادسية كانت فرسه ضعيفة
 فطلب غيرها فجاءوا له بفرس فأخذ بعكوة ذنبه وأجلد به إلى
 الأرض فألقى الفرس فردّه ، وجاءوا له بآخر ففعل به مثل
 ذلك فلم يقع ، فقال هذا على كل حال أقوى من تلك ، وقال
 لأصحابه إني حامل وعابر الجسر فإن أسرعتم بمقدار جزر الجزور

وجدتموني وسيقي بيدي أقاتل به تلقاء وجهي وقد عقرني القوم
وأنا قائم بينهم وقد قتلت وجردت ، وإن أبطأتم وجدتموني قتيلا
بينهم وقد قُتِلْتُ وجُردت . ثم حمل في العدو فقال بعضهم
يا بني زبيد ، تدعون صاحبكم ، والله ما نرى أن تدركوه حيا ،
فحملوا فأنهوا إليه وقد صرع عن فرسه وقد أخذ برجل فرسل
رجل من العجم فأمسكها والفارس يضرب الفرس فما تقدر أن
تتحرك من يده ، فرمى الأعجمي بنفسه وترك فرسه فركبه عمرو .

وكان لأبي ثور طريقة خاصة في القتال ، قال واحد ممن
شاهد موقعة القادسية : شهدت القادسية فرأيت يوما اشتد فيه
القتال بيننا وبين الفرس ورأيت رجلا يومئذ يفعل بالعدو
الأفاعيل ، يقاتل فارسا ثم يقتحم عن فرسه ويربط مقوده في
حقوه فيقاتل ، فسأل الرجل : من هذا جزاه الله خيرا ؟ قالوا له :
هذا عمرو بن معد يكرب !

وكان أبو ثور يقول للمسلمين يوم القادسية ألزموا خراطيم
الفيلة السيوف فإنه ليس لها مقتل إلا خراطيمها . وكان الفرس
يقاتلون فوق الفيلة . وقد شد أبو ثور على رستم قائد الجيش
الفارسي وهو على فيل فضرب خرطوميه وجذم عرقوبيه فسقط

الفيل وسقط رستم من فوقه فقتل .

وحدث عندما بلغ أبو ثور أرذل عمره أن جاء رجل وأراد أن
يتمحن قوة أبي ثور ، وكان هذا راكبا فرسا له ، فأدخل الرجل
يده بين ساقه وبين السرج وفطن عمرو فضمها عليه وحرك
فرسه فجعل الرجل يعدو مع الفرس لا يقدر أن يتزع يده حتى
إذا بلغ منه قال له أبو ثور : يا ابن أخي مالك ! قال : يدي
تحت ساقك ، فخلى أبو ثور عنه وقال له : يا ابن أخي إن
في عملك بقية !

ويظهر أن أبا ثور لم يكن مشهورا رغم شجاعته وقوته ، فقد
جاء أن الصمة بن بكر أغار على بني زيد فاستاق إبلهم
وسبي ريحانة أخت أبي ثور وانهزمت زيد ، فتبعه عمرو وأخوه
عبد الله ابنا معد يكرب ثم رجع عبد الله واتبعه عمرو وأخذ
يناشد الصمة بن بكر أن يخلي عن أخته فلم يفعل ، فلما يشس
منها رجع وهي تناديه بأعلى صوتها : يا عمرو ! ولم يقدر على
انتزاعها ثم قال :

أمن ريحانة الداعي السميع	يؤرقني وأصحابي هجوع
سباها الصمة الجشمي غصبا	كأن بياض غرتها صديع

وحالت دونها فرسان قيس تكشف عن سواعدها الدروع
إذا لم تستطع شيئاً فدعه وجاوزه إلى ما تستطيع

ويذكرون أن ربيعة بن مكدم أحد فرسان العرب العظام
طعن عمرو ابن معد يكرب فألقاه عن فرسه وأخذ فرسه ، وأنه
لقيه مرة أخرى فضربه فوقعت الضربة في قربوس السرج فقطعته
حتى عض السيف بكائبة الفرس فسأله عمرو وانصرف .

وكان عمرو يتحدث عن فراره إذا لم يجد فيه عيباً وذلك
عندما يشعر بأنه لا يستطيع أن يستمر في القتال . فقد لقي مرة
بنى عبس في أبطالهم فقر عنهم هارباً ، وفي هذا يقول :

لقيت أبا شاس وشاساً ومالكا

وقيساً فجاشت من لقاءهم نفسي
لقونا فضموا جانبينا بصادق

من الطعن مثل النار في الحطب اليبس
ولما دخلنا تحت فيء رماحهم

حبطت بكفى أطلب الأرض باللمس
وليس يعاب المرء من حين يومه

إذا عرفت منه الشجاعة بالأمس

وكان عمرو يميل إلى الكذب أحيانا ، فقد حدث أن وقف إلى جانب خالد بن الصقعب النهدي فأقبل عليه يحدثه ويقول :

أغرْتُ على بني نهد فخرجوا إلى مسترعفين بخالد بن الصقعب يقدمهم فطعنته طعنة فوق ، وضربته بالصمصامة حتى فاضت نفسه ، فقال له الرجل : يا أبا ثور ! أنا مقتولك الذي تحدث ! فقال عمرو : اللهم غفرا ، إنما أنت تحدث فاستمع ! وإنما نحن نتحدث بمثل هذا لنرهب هذه المعديّة ! . وهم العرب الشماليون وكان التنافس والصراع شديدا بينهم وبين اليمنية . وكان الراوية خلف الأحمر يتعصب لليمنية فإذا سئل عن كذب عمرو قال : كان يكذب باللسان ويصدق بالفعال .

وهكذا كان أبو ثور ، فارس مغوار في الجاهلية ولكنه ليس متهورا ، نهما أكولا خفيف الظل مع ذلك ، وكان في الإسلام أحد أبطال المحاربين وإن كان رقيق الدين غير حريص على تجنب ما حرم ، والبعد عما نهى عنه . وأثرت فيه عصبية اليمنية ضد المضرية مما دفعه إلى الكذب في سبيل هذه العصبية . وقد كرمه الخلفاء والقواد العظام وعرفوا قدره محاربا شجاعا وفارسا قويا . وقد تعددت الروايات في كيفية موته ، وإن كان

أكثرها رجحانا أنه مات بالفالج في نهاية عهد عمر بن الخطاب
وقد شارف المائة أو عداها بقليل .

ومن شعره يصف استعدادة للمعركة :

أعددت للحرب فضفاضة

دلاصا ثنى على الراهش (١)

وأجرد مطردا كالرشاء

وسيف سلامة ذى فائش (٢)

وذات عداد لها أزميل

برتها رماة بني وابش (٣)

(١) فضفاضة : واسعة يريد الدرع . الدلاص : اللينة البراقة الملساء .

الراش : أعصاب وعروق الذراع وجمعها رواش .

(٢) أجرد : يعني به الرمح قد سويت كموبه فأصبح أملساً . مطرد :

مستقيم . الرشاء : الحبل . سلامة ذو فائش : هو سلامة بن زيد بن مرة من
قبيلة يحصب وقيل إنه قيل من أقيال اليمن . وفائش : واد كان يحميه باليمن .

(٣) ذات عداد : يريد القوس وعدادها صوت رنين وترها . الأزميل :

الصوت . بنو وابش قبيلتان اشتهرت إحداهما وهى بنو وابش بن زيد بن عدوان
بأنها من أرى الناس

وكلّ نحيف فتيق الغرار

عزوف على ظفر الرائش (١)

وأجرد ساط كشاة الإرا

ن ريع فعن على الناجش (٢)

وآوى إلى فرع جرثومة

وعز يفوت يد الناهش (٣)

تمت ذاك وكنت أمراً

أصد عن الخلق الفاحش

ويقول واصفا بطولته في معركة :

لما رأيت نساءنا يفحصن بالمعزاء شدا

وبدت لميس كأنها بدر والسماء إذا تبدا

وبدت محاسنها التي تخفى وكان الأمر جدا

(١) النحيف : السهم المرقق . فتيق : عريض . غرار : حد .

عزوف : تسمع نه صوتاً . الرائش : الذى يريش السهم .

(٢) أجرد : يعنى جواداً أجرد أى قصير الشعر وتلك علامة على امتيازته .

ساط : بعيد الخطوة . شاة الإران : الثور الوحشى . الناجش : الذى يشير

الصيد ليهر على الصياد .

(٣) الجرثومة : الأصل .

أر من نزال الكيش بدا
 إن لقيت بأن أشدا
 بوأته ييدى لحدا
 ولا يرد بكاي زندا
 وخلقتم يوم خلقت جلدا
 أعد الأعداء عدا
 وبقيت مثل السيف فردا

نازلت كبشهم ولم
 هم يندرون دى وأنذر
 كم من أخ لى صالح
 ما إن جزعت ولا هلعت
 ألبسته أثوابه
 أغنى غناء الذاهبين
 ذهب الذين أحبهم

عروة بن الورد

فارس من عبس ، وعبس اشتهرت بفرساتها المبرزين
وشعراتها المشهورين ولكن فروسيته من نوع آخر غير الذي وجدناه
عند معديكرب مثلاً إذ هي فروسية صعلوك تختلف في بواعثها
وملاحظها العامة عن فروسية السادة .

وقد ذكرت من قبل من هم الصعاليك . وقلت إنهم فئة
من العرب طردتهم قبائلهم أو خرجوا هم عن ولائها بسبب
اضطهاد قبائلهم لهم وإحساسهم بعدم المساواة مع نظائهم
سواء كانت هذه المساواة اجتماعية أو اقتصادية فأرادوا أن يحققوا
بأنفسهم هذه المساواة وأن يأخذوا بنصيبهم كاملاً في كل ما يحق
لإنسان حر أن يأخذه في مجتمع ما . وكان سيلهم في هذا
« الغزو والإغارة للسلب والنهب » .

وقد تخلص صعاليك العرب جميعاً سواء الخلعاء منهم
أو الأغربة أو الفقراء المتمردون من فكرة العصبية الجاهلية أو

الانتماء لقبيلة يدافعون عنها ويخضعون لتقاليدها ويحرصون على رضاها ، فأصبحت تصرفاتهم غير مرتبطة بالحياة الاجتماعية العامة في قبائلهم بل إنهم استعاضوا عن هذه العصبية القبلية بعصبية مذهبية تجعلهم يخضعون في سلوكهم لهذا المنطق الجديد الذى اختاروه لأنفسهم ، والمذهب الذى عملوا من أجله ، وهو غزو وسلب للميسورين وتوزيع الغنيمة على المعسرين سواء كانوا منهم أو من غيرهم ممن ليسوا من مذهبهم .

وقد اشتهر كثيرون من فرسان الصعاليك أمثال السليك بن السليكة الذى هابه عمرو بن معديكرب كما ذكرنا آنفاً ، والشنفرى تلك الشخصية التى كان لا يرضيها إلا أن تستغل بطولتها الفردية فى أن ترى رعوس الأغنياء المترفين تتطاير تحت ضربات سيوفها ، ثم عروة بن الورد الذى كان تمردة وسيلة لغاية إنسانية نبيلة هى رفع الظلم عن المظلومين وحماية الضعفاء من سيطرة القساة المتجبرين من سادة القبائل . وكان عروة الداعية الحقيقى لهذا المذهب سواء فى شعره أو فى تصرفاته مع الآخرين .

وكانت عيسن تتشائم من والد عروة وهو الورد بن زيد بن عبد الله لأنه كان السبب فى حرب داحس والغبراء التى نشبت

بيها وبين فزارة حين راهن حذيفة بن بدر الفزاري على أن خيول
قيس بن زهير العبسي أفضل من خيله .

وكانت أمه من نهد إحدى قبائل قضاعة ، ويظهر أن
عروة كان ساخطاً على أمه أو على قبيلتها لسبب أو لآخر وذلك
لأننا نراه يهجو أخواله هجاء مرّاً . ويقول أحد الباحثين أن
سبب هذا السخط هو أن قبيلة نهد كانت أقل شرفاً من قبيلة
عبس قبيلة أبيه . فكان هذان السبيان :

تشاؤم قبيلته من والده ، وقلة شأن قبيلة أمه ، من العوامل
الرئيسية التي جعلته يشعر بالظلم الاجتماعي في مجتمعه
القبلي^(١).

ويقول الإخباريون أن والده كان يفضل أخاه الأصغر

(١) قال عروة هاجياً أخواله :

ما بي من عار أخال علمته	سوى أن أخوالى إذا نسبوا نهد
إذا ما أردت المجد قصر مجدهم	فأعيا على أن يقاربني المجد
فياليتهم لم يضربوا في ضربة	وأنى عبد فيهم وأبى عبد
ثعالب في الحرب العوان وإن تبخ	وتتفرج الجلى فإنهم الأسد
تبخ الحرب أى تنطوى .	

عليه مما ضاعف إحساسه بهذا الظلم وخاصة أنه كان مرهف
الحس رقيق العاطفة فقد كان يغتم الكثير ثم يوزع ما غنمه
على طائفته سواء من خرج منهم إلى الغزو أو من لم يخرج
لضعفه أو لمرضه . وكان يأخذ نصيبه مساوياً لنصيب أى فرد
منهم . لذلك أصبحت شخصيته أقرب إلى شخصية رب الأسرة
فى أسرته الصغيرة منها إلى شخصية الزعيم فى عشيرته ولذلك
أطلق عليه عروة الصعاليك .

وقد عرف الصعاليك هذه الأخلاق عن عروة ، فكان
إذا أصابهم قحط أتوه فجلسوا أمام بيته حتى إذا بصروا به
صرخوا وقالوا : يا أبا الصعاليك أغثنا ! . فيخرج ليغزو بهم .
وحدث أن نهته امرأته مرة عن الخروج لما تخوفت عليه من
الهلاك ، فعصاها وخرج غازياً ، فر على بعض من يعرفهم
فسألوه أين يريد ، فأخبرهم . فأمرؤا له بجزور فنحروها وأكل
منها ، وأشاروا عليه أن يرجع ، فعصاهم ومضى حتى انتهى
إلى بلاد بنى القين فأغار عليهم فأصاب هجمة عاد بها على
نفسه وأصحابه . وقال فى ذلك :

أرى أم حسان الغداة تلومنى تخوفنى الأعداء والنفس أخوف

وتقول سلمى لو أقمت لسرنا ولم تدر أنى للمقام أطوف
لعل الذى خوفتنا من أمامنا يصادفه فى أهله المتخلف

وقد لقب عروة بأسماء تدل على صفاته فهو أبو نجدة
وهو مانع الضيم ، بل إن أخلاقه أسمى من هذه الصفات
جميعاً فقد كان يقدم طعامه للجائع وهو جوعان ويقدم شرابه
للظائم وهو فى حاجة إليه ، وهو يجهد ويتعب ليجعل إناءه
مشتركاً بينه وبين غيره وهو يصور هذا كله فيقول :

وإني امرؤ عافى إنائى شركة وأنت امرؤ عافى إنائك واحد
أتهزأ منى أن سميت وأن ترى يجسمى مس الحق ، والحق جاهد
أقسم جسمى فى جسوم كثيرة وأحسو قراح الماء والماء بارد

وأحب شىء إلى نفس عروة أن يسطو على الأغنياء البخلاء
ليعطى الفقراء المعوزين ، أما أولئك الذى عرف عنهم الكرم
وبسط اليد فلم يكن يعتدى عليهم بل كان يمدحهم بلجوذهم
كما مدح مالك بن حمار لكرمه . وكيف لا يمدحهم وهو
نفسه يلزم نفسه هذه الخلة ، فإذا ناقشته امرأته فى هذا التبذير
عنقها ورفض أن يسمع لها ، بل إن الضيف عنده فى المكان
الأول وعليه أن يقدم له كل ما فى منزله والبشاشة فى وجهه أول

مظهر من مظاهر إكرامه يقول :

فراشى فراش الضيف والبيت بيته ولم يلهى عنه غزال مقنع
أحدثه إن الحديث من القرى وتعلم نفسى أنه سوف يهجع

لهذا قال عبد الملك بن مروان : من زعم أن حاتماً أسمع
الناس فقد ظلم عروة بن الورد . وكان معاوية وهو خليفة يتمنى
أن يكون لعروة ولد ليصاهره ويشرف بالانتساب إليه .

وتظهر فروسية عروة أول ما تظهر في قدرته كقائد حربى
لجيش الصعاليك إن صح هذا التعبير . فقد كان يرسم الخطط
الدقيقة التى تضمن لهم الفوز . فقد جاء أنه خرج بصعاليكه
إلى أرض بنى القين ، فهبط أرضاً ذات حجارة كبيرة فيها
ماء فرأى آثاراً فقال : هذه آثار من يرد هذا الماء فأكمنوا ،
فأحر أن يكون قد جاءكم رزق . فأقاموا يوماً ثم ورد عليهم
فصيل فقالوا : دعنا فلنأخذه فلنأكل منه يوماً أو يومين . فقال :
إنكم إذن تنفرون أهله وإن بعده إبل . فتركوه فندموا وجعلوا
يلومون عروة عندما هدم الجوع وأجهدهم ، ثم وردت الإبل
وفىها ظعينة ورجل معه سيف ورمح فخرج إليه عروة فرماه
بسهم فخر ميتاً واستاق عروة الإبل والظعينة حتى أتى قومه .

وبهذا استطاع عروة بفضل مهارته وخبرته أن يضرب حين
تحين الفرصة المناسبة .

ومن مظاهر هذه القيادة الحكيمة أيضاً أنه كان نزل
في مكان بعث بصعلوك فيرتقى ربوة عالية ليراقب الطريق وينذرهم
إن رأى ما يخشونه ، ويقول في ذلك :

إذا ما هبطنا منهلاً في مخوفة . بعثنا ريثاً في المرائي كالجلجل
يقلب في الأرض الفضاء بطرفه . وهن مناخات ومرجلنا يغلى

وعند ما قتل الشنفرى الصعلوك ، وقف زميله تأبط شراً
يرثيه ويتذكر كيف وقف مراقباً في انتظار فرائسه :

ومرقة شماء أقعيت فوقها . ليغم غاز أو ليدرك نائر

ويعلل عروة لمغامراته بكثرة أضيافه وقلة ماله وكثرة عياله
فكان عليه أن يغامر في سبيل الحصول على المال .

ومن يك مثلي ذا عيال ومقتر . من المال يطرح نفسه كل مطرح

والصعلوك يفضل الموت على أن يعيش ذليلاً جائعاً ، وهو
لا يخاف هذا الموت لأنه يعلم أنه واقع له لا محالة ، وكان هذا
هو أساس تكوينه النفسى . يقول عروة :

إذا المرء لم يبعث سواماً ولم يرح عليه ، ولم تعطف عليه أقاربه
فللموت خير للفتى من حياته فقيراً . ومن مولى تدب عقاربه

ويقول :

فقلت له : ألا أحى وأنت حر ستشبع في حياتك أو تموت

لهذا كانت شجاعة الصعلوك شجاعة خارقة ، وهى شجاعة
خافتها القبائل ، كما خافها الفرسان كما ظهر في قول عمرو بن
معديكرب .

ولم يكن الفارس الصعلوك يعتمد على فرسه دائماً وإنما كانت
رجلاه خير معين له في الهجوم وفي الهروب ، لذلك اشتهر
الصعاليك بسرعة العدو ، وكثيراً ما كانت هذه الخاصية سبباً في
نجاتهم من مآزق كثيرة . ويجب أبو خراش الصعلوك ابنته
عند ما سأله كيف سلم من ذلك المأزق الذى أوقع نفسه فيه
أنه نجا بسرعة عدوه ولولا ذلك لأصبحت امرأته أمة ويتم
ابنه .

تقول ابنتى لما رأتى عشيّة

سلمت وما إن كدت بالأمس تسلم

ولولا دراك الشد قازت حيلتي
 تخير من خطابها وهي أيم
 فتقعد أو ترضى مكاني خليفة
 وكاد خراش يوم ذلك ييم
 وهذا صعلوك يرى أن رجليه أثمن ما فيه وهو يفديهما بأمه
 ونحاله :

فدى لكما رجلى أمي ونحالي بسعيكما بين الصفا والأثائب
 وعلى هذا فقد كانت غزوات الصعاليك تعتمد على أرجلهم
 كما اعتمدت على أفراسهم وهم في هذا يختلفون عن الفرسان
 السادة الذين كان جل اعتمادهم على الخيل . وفي شعر عروة
 أحاديث كثيرة عن هذين الأسلوبين من أساليب الغزو ، فها هو
 تخاطبه امرأته وتلومه على غارته المتكررة بأولئك الرجلين الذين
 يعتمدون في غزواتهم على أرجلهم . ويأخونهم الفرسان الذين
 يعتمدون على الخيل :

تقول : لك الويلات ، هل أنت تارك
 ضبوءاً^(١) برجل تارة وبمنسر

(١) ضباً : اختبأ واستتر ليختل . المنسر : جماعة الخيل .

ويقول أيضاً مصوراً هذين الأسلويين في الغزو :
 لعل انطلاقي في البلاد ورحلتي
 وشدي حيازيم المطية بالرجل
 سيدفعني يوماً إلى رب هجمة
 يدافع عنها بالعقوق وبالبخل
 قليل تواليها وطالب وترها
 إذا صحت فيها بالفوارس والرجل

وقد وفر الفرسان الصعاليك لغزواتهم كل عناصر النجاح
 وتحقيق الأهداف ، ففيهم قوة الجسم . وشدة البأس ، وشجاعة
 القلب ، وصدق العزيمة . وسرعة العدو . وهم أيضاً واسعوا الحيلة
 عميقو الدهاء يعرفون كيف يتخلصون من المآزق الضيقة والمواقف
 الحرجة ففي أخبار الشنفرى أنه كان إذا سار بالليل نزع نعلا
 ولبس نعلا وضرب برجله حتى يمويه على الناس فيظنوه الضبع ،
 وفي أخبار السليك بن السليكة أنه احتال على رجل في سوق
 عكاظ حتى عرف منه منازل قومه تمهيداً للإغارة عليها .

كذلك وفر الصعاليك كل أنواع السلاح المعروفة في
 عصرهم وبيشتم لمعاركهم وقد وصفوا تلك الأسلحة في شعرهم

وتحدثوا عن قيمتها في حياتهم ، ويذكر عروة أنه لن يترك بعد
 موته سوى سيف ورمح ودرع ومغفر وجواد . وهذا هو ما سوف
 يرثه وارثوه من بعده :

وذى أمل يرجو تراثي ، وإن ما
 يصير له منه غدا لقليل
 ومالي مال غير درع ومغفر
 وأبيض من ماء الحديد صقيل
 وأسمر خطي القناة مثقف
 وأجرد عريان السراة طويل

وتفوق خبرة الفارس الصعلوك بالصحراء خبرة الفارس
 السيد وذلك بسبب طبيعة حياته التي تعتمد على الإغارة والتشرد ،
 إذ إن في معرفة دروبها درباً ورباً وجبالها جبلاً جبلاً إنقاذاً لحياته
 وتأميناً لطرق مواصلاته ، ولذلك وصفهم القدماء بأنهم « أهدي
 من القطا ، وقالوا « أدل من قطاه » لذلك برعوا في وصفهم لهذه
 الصحراء ووهادها وهضابها ووحوشها ونباتها ، وهم لا ينسون
 أنفسهم في كل هذا الوصف وإنما يصورون كيف تغلبوا على
 هذه الصحراء فقطعوها وصارعوا وحوشها وكنوا في مغاراتها .

والصحراء جزء من نفوسهم بل هي كل حياتهم وهم في هذا يختلفون عن وصف الفرسان السادة لها ، فالفارسي السيد ينظر إلى الصحراء على أنها مادة من مواد الفخر بنفسه أو بقبيلته. أما الفارس الصعلوك فهو وقد وهنت فيه هذه التزعة القبلية ينظر إلى الصحراء وكأنه ينظر إلى نفسه فهو قد امتزج بها وأصبح كيانها وكيانها كلا واحداً، فهي تعيش في نفسه ليلاً ونهاراً، لا ينساها أبداً في صحوه أو نومه . وقد ألف كل عناصرها وصادق كل ما اشتملت عليه من حيوان أو نبات أو مسالك وحرار ، فهذا تأبط شراً يقول إنه قد ألفته وحوش الصحراء واطمأنت إليه حتى لتوشك أن تصافحه لو أن وحشاً تصافح إنساً :

يبيت بمغنى الوحش حتى ألفته
ويصبح لا يحمي لها الدهر مرتعا
رأين فتى لا صيد وحش يهيمه
فلو صافحت إنسا لصافحته معا

وأخيراً فعند ما ننظر إلى نموذج الصعلوك الذي يحبه أبو الصعاليك والنموذج الذي يكره . نجد ذلك مصوراً في شعره عندما يقول إن أسوأ صعلوك عنده هو ذلك الذي يقضي حياته

ذليلاً مهاناً ، كسولاً خاملاً قاعداً عن طلب الغنى ، ليست فيه
شده الصعلوك الحقيقى وصلابته ، وإبائه وشجاعته وإنما يخدم
نساء الحى المترفات .

لحى الله صعلوكاً إذا جن ليله
مضافى المشاش ألفاً كل مجزر
يعد . الغنى من دهره كل ليلة
أصاب قراها من صديق ميسر
ينام عشاء ثم يصبح طاوياً
يحث الحصى عن جنبه المتعفر
قليل التماس الزاد إلا لنفسه
إذا هو أمسى كالعرش المجور
يعين نساء الحى ما يستعنه
فيمسى طليحاً كالبعير المحسر

أما الصعلوك الذى يقدره عروة فهو صعلوك نشيط بعيد
الغارة ، يلتقى المنية وهو عارف أنها نصيبه ، ويعيش فيتنفق أمواله
فيما يخلد مآثره فى حياته وبعد موته :

ولكن صعلوكاً صحيفة وجهه كضوء شهاب القابس المتنور

مُطلّاً على أعدائه يزجرونه بساحتهم زجر المنيع المشهر
 فإن بعدوا لا يأمنون اقترابه تشوف أهل الغائب المنتظر
 فذلك إن يلق المنية يلقسها حميداً وإن يستغن يوماً فأجدر
 وقد وردت أبيات أخرى قريبة الشبه من أبيات عروة
 تنسب إلى حاتم الطائي وهي تصور أيضاً الفرق بين الصعلوك
 الكسلول والصعلوك النشيط :

لحي الله صعلوكاً مناه وهمه
 من العيش أن يلقى لبوساً ومطعماً
 ينام الضحى حتى إذا الليل جنّته
 تنبه مثلوج الفؤاد مورماً
 مقبماً مع المثرين ليس ييسارح
 إذا نال جدوى من طعام ومجثماً
 ولكن صعلوكاً يساور همّه
 ويمضى على الهيجاء ليثاً مصمماً
 فتي طلبات لا يرى الخمص ترحة
 ولا شبة إن نالها عد مغنماً
 إذا ما رأى يوماً مكارم أعرضت
 تيمم كبراهن ثمت صمماً

ترى ربحه ونيله ومجنه
 وذا شطب غضب الضريبة مخدماً
 فذلك إن يلق الكريهة يلقها
 حميداً وإن يستغن يوداً فربما

عنتر بن شداد

أى صدى فى النفس يخلقه وقع هذا البيت عند ما نسمع
المنشد يردد :

وإذا الكتيبة أحجمت وتلاحظت
ألفيتُ خيراً من مُعِمِ مخول

لا شك أنها نفسية فارس من طابع يختلف عما ألفه المجتمع
الجاهلى فى الفخر ، فالشاعر عند ما يفخر فإنما يفخر بنسبه
من ناحيته : ناحية أمه وناحية أبيه . أما شاعرنا فهو لا يستمد
عناصر فخره من أعمامه أو من أخواله وإنما يستمدّه من نفسه ،
من بطولته وفروسيته ، من ضرباته وهجماته ، من إقدامه حين
تحجم الفرسان ، ومن جرأته حين تجبن الكتائب . ذلك الفارس
الشاعر هو عنتر بن شداد العبسى .

فإذا نظرنا فى مكونات شخصية هذا الفارس ، فسوف
نجدها تتركز على عنصرين :

أولهما أنه عبد رغم أن أباه سيد من سادات عبس ، فقد

كانت أمه أمة حبشية يقال لها زبيبة كان قد سباهها عمرو بن شداد في إحدى غزواته ، وكان من تقاليد الجاهليين أن لا يعترفوا بينة أبنائهم الذين جاعوا من إمامهم ، وإنما تستعبدتهم القبيلة ، فإن أنجبوا اعترفت بهم وإلا بقوا عبيداً . لهذا كان عنزة أسود اللون كأمه كما كان عبداً .

أما العنصر الآخر فهو نتيجة للعنصر الأول ، وذلك أن قبيلته عاملته معاملة العبد وهي لا تعلم ما يدور في نفسه من خوالج ، وما تضطرم به مشاعره من ثورات على هذا الوضع فقد كانت القبيلة إذا خرجت للغزو وغنمت الغنائم لا تفرض لعيدها نصيباً رغم أنهم شاركوا في هذه الحرب ساداتهم ، كذلك كانت امرأة أبيه تحتك به وتدفع أباه إلى ضربه ، فقد حدث أن جاءت شداد مرة وقالت : إنه يراودني عن نفسي . فغضب عمرو بن شداد غضباً شديداً وضربه ضرباً مبرحاً بل ضربه بالسيف فلما رأت ما به من الجراح كفته عنه وبكت نادمة وكان اسمها سمية فقال عنزة :

أمن سمية دمع العين مذروف
لو أن ذا منك قبل اليوم معروف

كأنها يوم صددت ما تكلمني
 ظبي بعسفان ساجي العين مطروف^(١)
 تجللتني إذ أهوى العصا قبلي
 كأنها صنم يعتاد معكوف^(٢)
 العبد عبدكم والمال مالكم
 فهل عذابك غنى اليوم مصروف
 تنسى بلائي إذا ما غارة لحقت
 تخرج منها الطوالات السرايعف^(٣)
 يخرجن منها وقد بلت رحائلها
 بالماء تركضها الشم الغطاييف^(٤)
 قد أظعن الطعنة النجلاء عن عرض
 تصفر كف أخيها وهو متروف
 لهذا كانت فروسية عنرة نموذجاً مخالفاً لنموذج الفارس
 السيد والفارس الصعلوك في دوافعها النفسية وفي موقف القبيلة

(١) عسفان : منهلة من مناهل الطريق بين الجحفة ومكة .

(٢) صنم يعتاد : يؤتى مرة بعد مرة .

(٣) الطوالات : الخيل ، السرايعف : السراع .

(٤) النطاريف : الكرام والسادة .

منها وموقفها من القبيلة . قالفارس السيد ابن قبيلته البار فهو
عند ما يتغنى ببطولته لا ينسى أن هذه البطولة إنما هي ملك
للقبيلة . بل إنه يتغنى بكل شاب وصبي وطفل يستطيع أن
يباهى به لأنه عنوان لبأس القبيلة ورمز لخشية أعدائها لها يقول
عمرو بن كلثوم وهو يحس قيمة قبيلته ، مشيداً ببطولة كل
فرد فيها :

إذا بلغ الرضيع لنا فطاما تخر له الجبابر ساجديننا
أما الفارس الصعلوك فهو ابن جماعته الصغيرة ومذهبها في
الحياة ، ابن صحرائه بوحوشها ونباتها وعواصفها ، وفروسيته قائمة
على صداقة عناصرها الطبيعية ومعاداة أناسها الظالمين يقول
الشنفرى :

ولى دونكم أهلون : سيد عملس
وأرقط زهلول ، وعرفاء جيال^(١)
هم الأهل ، لا مستودع السر ذائع
لديهم ، ولا الجاني بما جر يخذل

(١) السيد : الذئب . العملس : القوى على السير السريع .
الأرقط : المراد به النمر . الزهلول : الأملس . العرفاء : الضبع الطويلة
العرف . جيال : اسم للضبع .

فأهله هم الذئاب والنمور والضباع وهم قوم شرفاء ، السهم
لديهم لا يذاع وجانيهم لا يخذل .

أما عنزة الفارس العبد فهو ابن بطولته ، ابن صراعه اليوم
في سبيل حريته وفي سبيل إبقائه على حياته ، فإذا فتشنا في
شعره عن فخر بنسب فلن نجد إلا البيتين يفتخر في الأول
بنسبه من جهة والده ويفتخر في الثاني ببطولته تعويضاً عن
نسبه من جهة أمه . يقول :

إني امرؤ من خير عبس منصباً

شطري وأحمى سائري بالمنصل

وإذا الكتيبة أحجمت وتلاحظت

ألفيت خيراً من معي مخول

فشطره الأول من خير عبس منصباً ، وشطره الآخر بحميه

ببطولته وفروسيته في ميدان القتال ولا يحميه نسبه لأمه ، بل

إنه بعد ذلك فوق كل الأنساب .

وزاد من ضيق عنزة بواقعه المر ، وألهب من ثورته العارمة

ضد قومه وضد أعدائه على السواء ذلك الحب اليائس الذي

ملاً فؤاده ، وسهد جفنه ، بل زاد من إحساسه . بحظه منزلته

الاجتماعية فدفعه . نحو انفجار نفسي مروع جعله يطلب

الحرية بكل الوسائل ليتساوى مع من يحب فتعاذل عن دخول معارك قومه حتى يعترفوا به حراً من أحرار القبيلة ، وفارساً من فرسانها السادة . فقد حدث أن أغارت عبس على طي فأصابوا نعاماً فلما أرادوا القسمة قالوا لعنرة : لانقسم لك نصيباً مثل أنصبا ثنا لأنك عبد ، وطال ذلك ثم حدث أن كرت عليهم طي فاعترلهم عنرة وقال : دونكم القوم فإنكم عددهم . واستنقذت طي الإبل . فقال له أبوه : كر يا عنرة فقال : أو يحسن العبد الكر ! فقال له أبوه : العبد غيرك ، فاعترف به ، فكر واستنقذ النعم ، وجعل يقول :

أنا لهجين عنرة كل امرئ يحمي حره
أسوده وأحمره والشعرات المشعره

الواردات مشفرة

وبهذا اعترف والده بينوته عند ما أثبت عنرة بطولته . وأصبحت فروسية عنرة بعد ذلك وحبها شيئاً واحداً ، فهو عند ما يغنى حبه فإنما يغنى فروسيته ، وعند ما يدخل المعركة فعيلة هي التي في مخيلته يهبها بطولته ، ويتخذها أيقونة له ، وفي كلتا الحالتين يرر لها سواده أروع تبرير ، فيكرم ذاته ، ويفاخر بشدته وبأسه :

أعبله قد زاد شوقي وما
وكم جهد ناثبة قد لقيت
فلو أن عينيك يوم اللقاء
يفيض سناني دماء النحور
وأفرح بالسيف تحت الغبار
وتشهد لي الخيل يوم الطعان
وإن كان جلدي يرى أسوداً
ولو صلت العرب يوم الوغى
ولو أن للموت شخصاً يرى
وتقف القبيلة ضد حبه لأنه عبد ويقطع عنزة الصحراء
ليلاً ونهاراً يبثها أشجانه ، وينشدها خفقات قلبه ، وهو لا ينسى
في كل هذا نفسه وبطولته فهو كما قلت ابن لهذه البطولة فهي
نسبه وهي أصدقائه
كم ليلة سرت في البيداء منفرداً
سيفي أنيسي ورمحي كلما نهمت
والليل للغرب قد مالت كواكبه
أسد الدحال إليها مال جانبه (٢)

(١) السربة بالضم : الجماعة من الخيل .

(٢) الدحال : جمع داحل وهو ثقب ضيق فه ثم يتسع أسفله ينبت فيه

نبات السدر .

وكم غدير مزجت الماء فيه دماً عند الصباح وراح الوحش طالبه
 باطامعا في هلاكى عد بلا طمع ولا ترد كأس حتف أنت شاربه
 وتشف هذه النفس الغليظة في الحرب أمام الحب شفافية
 البلور ، وذلك حينما يعاتبها ويعاتب قومها الذين وقفوا ضد
 هذا الحب .

ألا يا عبل قد زاد التصايبى
 ولج اليوم قومك فى عذابى
 وظل هواك ينمو كل يوم
 كما ينمو مشيى فى شبابى
 عتبت صروف دهرى فىك حتى
 فى وأبيك عمرى فى العتاب
 ولايت العدا وحفظت قوماً

أضاعونى ولم يرعوا جنابى
 ويقص علينا عنرة رأى عبلة فيه فى قصيدة رواها
 الأصمعى وتعتبر من غرر القصائد التى وردت فى ديوانه إذ
 أننا نشعر فيه بهذا الحب الفاخر وهذا التضاحك بين فى
 وفتاة يعيشان فى أروع فترات حياتهما ، فترات التبادل
 العاطفى ، والترابط القلبي . يقول :

عجبت عبيلة من فتي متبذل
 عارى الأشاجع شاحب كالمنصل
 شعث المفارق منهج سرباله
 لم يدهن حولاً ولم يترجل
 لا يكتسى إلا الحديد إذا اكتسى
 وكذلك كل مغاور مستبسل
 قد طالما لبس الحديد فإنما
 صداً الحديد يجلده لم يغسل

فهذا العجب عجب حبيبة من حبيبها فهي تهتم به وتعيب
 عليه أنه لا يغتسل . وأنه قد أصبح شاحب الوجه نحيف الجسم ،
 وليس معنى هذا أنها تأخذ عليه ذلك وإنما تمزح معه ، وتدل
 عليه :

فتضحكت . عجباً وقالت يا فتي
 لا خير فيك كأنها لم تحفل

وهنا يرد عليها رد البطل ، فهي تهتم بالأشياء التافهة وهو
 يهتم بأشياء أسمى من الاغتسال أو الحرص على أن يكون ممتلئاً ،
 يهتم بالحرب وبما تتطلبه من سلاح وإعداد خيل وجراءة قلب :

فعجبت منها حين زلت عينها
 عن ماجد طلق اليسدين شمردل
 لا تصرمينى يا عييل وراجعى
 فى البصيرة نظرة المتأمل
 فلب أملح منك دلا فاعلمى
 وأقر فى الدنيا لعين المحتلى
 وصلت حبالى بالذى أنا أهله
 من ودها وأنا رضى المطول
 وعشرة فى هذه الآيات كأنه يريد أن يث الغيرة فى
 قلبها ولكنه سرعان ما يتذكر نفسه وفروسيته فيقول :
 يا عبل كم من غمرة باشرتها
 بالنفس ما كادت لعمرى تنجلي
 فيها لوامع لو شهدت زهاءها
 لسلوت بعد تخضب وتكحل
 إما ترى قد نحلت ومن يكن
 غرضاً لأطراف الأسنة ينحلى
 فلب أبلغ مثل بعلك يادن
 ضخم على ظهر الجواد مهبل

غادرته متعفراً أوصاله

والقوم بين مجرح ومجدل

فيهم أخو ثقة يضارب نازلاً

بالمشرفى وفارس لم يتزل

ورماحنا تكف النجيع صدورها

وسيفونا تخلى الرقاب فتختلى

وإذا بحثنا في قصة حب هذا الفارس فلن نجد أخباراً

وافية عنها في كتب الأدب والأخبار وإن تردد أنه نشأ بعد أن

رفض والد عبلة حبه لابنته ، وكيف يرضى به بعلا لفتاة حرة

ذات نسب عريق ؟ ويقال إنه أراد أن يخفف من قسوة هذا

الرفض فطلب منه مهراً لا يطيقه محب وذلك أنه طلب ألف

ناقة من عصفير الملك النعمان ، وخرج عنزة يطلبها فلاقى

من الأهوال ما لم يلقه فارس ، بل إنه وقع في الأسر وأبدي

بطولات خارقة ليرضى عنه من أسره ويحرره ، وأخيراً ينجح

عنزة ويأتى قبيلته ومعه النوق العصفير ، ولكن والد عبلة يماطل

في تزويجها له فيعرض ابنته على فرسان القبائل الأخرى وساداتها

مشرطاً عليهم رأس عنزة مهراً لها . ويبارز عنزة المنافسين

ويقهرهم فيقتل مسحل بن طراق ويصادقه بسطام فارس

بنى شيان بعد أن أوشك عنزة على قتله ، ثم لا نعلم بعد هذا
 كله أنجح عنزة في تحقيق حلمه بزواجه من عبلة أم لا .
 وقد شارك عنزة في حروب عبس مشاركة أنقذت قبيلته
 من مآزق كثيرة وكانت سبباً في انتصارها ويكنى أن نذكر
 أنه كان أحد أبطال حرب داحس والغبراء . فقد حدث أن
 غزت بنو عبس بنى تميم وعليهم قيس بن زهير أحد أبطال
 العرب ، فانهزمت بنو عبس وطلبتهم بنو تميم ، فوقف لهم
 عنزة ، ولحقهم كبكبة من الخيل ، فحامي عنزة عن الناس
 فلم يصب مدبر ، فساء قيس بن زهير ما أظهره عنزة من
 بطولة في حماية قومه فقال حين رجع من المعركة : والله
 ما حمى الناس إلا ابن السوداء . فقال عنزة يهجو قيس
 بن زهير وكان أكولاً ويفتخر ببطولته في المعركة :

بكرت تخوفنى الحتوف كأننى

أصبحت عن عرض الحتوف بمعزل

فأجبتها إن المنية مهل

لا يد أن أسقى بكأس المهل

ثم يقول يرد على قول قيس إنه ابن السوداء :

إلى امرؤ من خير عبس منصباً
 شطرى وأحمى سائرى بالمنصل
 وإذا الكتيبة أحجمت وتلاحظت
 ألفت خيراً من معم مخول
 والهيل تعلم والفوارس أننى
 فرقت جمعهم بضربة فيصل
 إذ لا أبادر في المضيق فوارسى
 أو لا أوكل بالرعيل الأول
 إن يلحقوا أكرر وإن يستلحموا
 أشدد وإن يلفوا بضنك أنزل
 ثم يقول بيته المشهور الذى أنشد للنبي صلى الله عليه وسلم
 فقال : « ما وصف لى أعرابى قط فأحببت أن أراه إلا عنزة » .
 ولقد أبيت على الطوى وأظله
 حتى أنال به كريم المأكل
 وكان عنزة أحد فرسان حرب داحس والغبراء التى نشبت
 بين عبس وذبيان وقد أظهر فيها عنزة بطولات اشتهرت وذاعت
 بين القبائل فخشوا بأسه وحاولوا أن يتجنبوه فى حروبهم ؛
 وقد قتل فى هذه الحرب فرساناً كثيرة منهم ضمضم أبو الحصين

المرى والحارث بن بدر ، ورغم هذا فلم يكن عنزة سفاكاً للدماء
أوراعياً في الحرب بل إنه يندم على قبول القبائل للسباق الذي
تسبب في هذه الحرب ، يقول في قصيدة رثى بها مالك بن
زهير العبي :

فله عينا من رأى مثل مالك
عقيرة قوم أن جرى فرسان
فليتهما لم يجريا نصف غلوة
وليتهما لم يرسلان لرهان -
وليتهما مائاً جميعاً بيلدة
وأخطاهما قيس فلا يريان
لقد جلبا حيناً وحرباً عظيمة
تبيد سراة القوم من غطفان

ويظهر أن عنزة رغم هذه الشدة وذاك البأس كان على
شيء من التواضع فقد قيل له : أنت أشجع العرب وأشدّها ؟
قال : لا . فسئل : فم شاع لك هذا في الناس ؟ قال : كنت
أقدم إذا رأيت الإقدام عزماً وأحجم إذا رأيت الإحجام حزمًا .
ولا أدخل إلا موضعاً أرى لي منه مخرجاً . وكنت أعتمد

الضعيف الجبان فأضربه الضربة الهائلة يطير لها قلب الشجاع
فأثنى عليه فأقتله .

فهذا يوضح صراحته وتواضعه كما يصور حنكة الفارس
الخبير بالحروب ، فليست الشجاعة تهوراً وإنما هي الإقدام في
موضع الإقدام والحذر في موضع الحذر بل التقهقر قد يكون
خطة ناجحة يلجأ إليها الشجاع لينتصر .

وقد اشتهر كثير من فرسان عبس غير عنزة فقد قال
عمر بن الخطاب للشاعر الخطيئة وهو ينسب في قبيلة عبس :
كيف كنتم في حربكم ؟ قال : كنا ألف فارس حازم .
قال : وكيف يكون ذلك ؟ قال الخطيئة : كان قيس بن زهير
فيما وكان حازماً فكنا لا نعصيه . وكان فارسنا عنزة فكنا نحمل
إذا حمل ونحجم إذا أحجم . وكان فينا الربيع بن زياد وكان
ذا رأى فكنا نستشيريه ولا نخالفه . وكان فينا عروة بن الورد
فكنا نأتم بشعره ، فكنا كما وصفت لك . فقال عمر : صدقت .

وقد مات عنزة مقتولا كما جاء في أكثر الروايات وكان
ذلك أوائل القرن السابع الميلادي ، وربما كان قبل البعثة
بسينين معدودة فقد عاصر الخطيئة الشاعر المخضرم كما عاصر

عمرو بن معد يكرب الذى كان يخشى منازلته . وكان عنزة
 مسناً حينما أغار على بنى نبهان أو بنى طيء فرموه بسهم فأصابوا
 منه مقتلاً ، وكانت نهاية فارس بطل عاش فى الحرب ومات
 فى الحرب .

من أخبار الفرسان

ربيعة بن مكرم :

واحد من فرسان بني كنانة ، اعترف له فرسان الجاهلية بالفضل والإقدام رغم أنه مات صغير السن . عاصر عنزة العبي ، والسليك بن السليكة وعامر بن الطفيل ، وقد خاف بأسه عمرو بن معد يكرب وعندما نازله أوشك ربيعة أن يقتله . أطلق عليه الرواة حامى الظعينة وهي المرأة التي تحمل في هودجها : وكان العرب يفتخرون بحماية الظعائن والدود عن النساء ، وتدور بطولة ربيعة حول حماية النساء والدفاع عنهن فقد حماهن من دريد بن الصمة حين خرج دريد يريد الغارة على بني كنانة فلما انتهى إلى وادي الأخزم بالقرب من ديار القوم ظهر له من جانب الوادي شخص ومعه ظعينة فقال لفارس من أصحابه : سر إليه وصح به : نخل الظعينة وانج بنفسك . وكان ربيعة إذ ذاك ما زال غلاماً فناداه الفارس فلم يجبه ، فألح عليه الفارس أن ينجو بنفسه ويترك الظعينة

فرفض ربيعة مستكبراً وقال للظعينة :

سيرى على رسلك سير الآمن
سير رداح ذات جأش ساكن
إن انثنائى دون قرنى شائسى
أبلى بلائى ، فاخبرى وعائسى

ثم حمل على الفارس فصرعه وأخذ فرسه فدفعه إلى الظعينة ،
فلما استبطأ دريد صاحبه بعث فارساً آخر يكشف له الخبر
فوجد رفيقه صريعاً ورأى الفتى يقود الراحلة فصاح به فتصامم
عنه ، فاقتحمه بفرسه ، فنازله ربيعة وصرعه وهو يتشد :

خل سبيل الحرة المنيعه إنك لاق دونها ربيعة
فى كفه خطيئة مطيعة أو لا فخذها طعنة سريعة
فالطعن منى فى الوجى شريعة

فلما أبطأ الفارس على دريد بعث ثالثاً لينظر ما صنع
الفارسان الآخران ، فأنهى إليهما فرأهما صريعين ، ونظر فرأى
الفتى يقود ظعنته ويجر رمحه فقال له الفارس : خل عن
الظعينة . فقال لها ربيعة « اقصدى قصد البيوت » ثم رجع
إلى الفارس وقال له :

ماذا تريد من شتيم عابس ألم تر الفارس بعد الفارس
أرداهما عامل رمح يابس

ثم طعنه فصرعه فانكسر رمحه . واستبطأ دريد أصحابه
فظن أنهم قد أخذوا الظعينة وقتلوا الرجل فلاحق بهم فوجد ربيعة
لا رمح معه وقد دنا من الحى ووجد أصحابه قد قتلوا فقال له
دريد : أيها الفارس ، إن مثلك لا يقتل وإن الخيل ناثرة
بأصحابها ولا أرى معك رمحاً وأراك حديث السن فدونك هذا
الرمح ، فلانى راجع إلى أصحابى فثبط عنك . ثم أتى دريد
أصحابه وقال لهم : إن فارس الظعينة قد حماها وقتل فوارسكم
وانترع رمحى ولا طمع لكم فيه ، فانصرف القوم ودريد ينشد :

ما إن رأيت ولا سمعت بمثله

حامى الظعينة فارساً لم يقتل
أردى فوارس لم يكونوا نهزة
ثم استمر كأنه لم يفعل
متهلل تبدو أسرة وجهه
مثل الحسام جلته أيدي الصيقل
يزجى ظعينة ويسحب رمحه
متوجهاً يمتناه نحو المنزل

وترى الفوارس من مخافة ربحه
 مثل البغاث خشين وقع الأجدل
 يا ليت شعري من أبوه وأمه
 يا صاح من يك مثله لم يجهل
 فقال ربيعه مجيباً :

إن كان ينفعك اليقين فسائلي
 عني الظعينة يوم وادي الأحرم

وفي هذه القصيدة يصف ما وقع له مع دريد بن الصمة
 وفرسانه .

وقد سأل عمر بن الخطاب عمرو بن معد يكرب : من
 أشجع من رأيت ! قال : كانت لي فرس شقيقة طويلة
 سريعة الإنفاذ فركبتها فلم أكن ألقى أحداً إلا قتلته ، ثم مضيت
 فأصبحت بين رجال متعاقدة فنظرت إلى أبيات فعدلت إليها
 فإذا فيها جوار ثلاث كأنهن نجوم الثريا : فبكين حين رأيتني
 فقلت : ما يبكيكن ؟ فقلن : لما ابتلينا به منك . ومن ورائنا
 أخت لنا أجمل منا ، فتركتهن وسرت في طلبها فأشرفت على
 مكان مرتفع ، وإذا بغلام قد جلس ينخسف نعله (يرقعها) فلما

نظر إلى وثب على فرسه مبادراً ثم ركض فسبقني إلى الفتيات
فوجدهن قد ارتعن فسمعتة يقول هن :

مهلا نسياتي فلا ترتعن
إن تمنع اليوم نساء تمنعن

فلما دنوت منه قال : أطردي أو أطردي لك . قلت :
بل اطردي لي فركض وركضت في إثره حتى أمكنت السنان
من لفته (أسفل الكتف) فإذا هو والله ينقلب على صدر
جواده فتذهب الطعنة خائبة . ثم استوى في سرجه . فعدت
إلى طرده وهو يركض أمامي حتى إذا مكنت السنان بين
ناصيته إذا هو والله قائم على الأرض ومضى السنان زاحياً
في الهواء . ثم استوى على فرسه ، فطرده ثالثة حتى إذا أمكنت
السنان من متنه اتكأت عليه وأنا أظن أني قد فرغت منه فمال
في سرجه حتى خالط بدنه الأرض وذهبت الطعنة في الهواء
مرة أخرى ثم استوى على فرسه وقال : أبعد ثلاث تريد ماذا ؟
ثكلتك أمك ! فوليت وأنا مرعوب منه فلما غشيتني أحسست
بمس الريح في بدني فالتفت فإذا هو يطردني بالريح دون سنان .
ثم كف عني واستترني فتزلت عن فرسي فجز ناصيتي وقال :

انطلق فإني أنفس بك عن القتل . فكان ذلك عندى يا أمير المؤمنين أشد من الموت . ثم سألت عن الفتى فقيل ربيعة ابن مكدم فذلك أشجع من رأيت .

وقصة موت ربيعة من أروع قصص البطولة التي وصلتنا من العصر الجاهلى كان قد وقع نزاع بين نفر من بنى سليم ونفر من بنى كنانة فقتلت بنو كنانة رجلين من بنى سليم ثم أعطوا دينهما . وكف النزاع مدة من الزمن . وفي يوم خرج نبيشة بن حبيب في جماعة من بنى سليم غازياً ، فلقى ظعائن من بنى كنانة في موضع يقال له الكديد . وكانت الظعائن في حماية بعض الفرسان فيهم ربيعة بن مكدم وكان مريضاً يحمل في محفة . فلما رأوهم قال الحارث بن مكدم أخو ربيعة : هؤلاء بنو سليم يطلبون دماءهم . فلما سمع ربيعة ذلك غالب ضعفه وامتنى جواده وقال : أنا أذهب أعلم علم القوم فآتيكم ^{بأخبارهم} ، وتوجه نحوهم . فقال بعض الظعن : هرب ربيعة . وقالت أم عزة بنت مكدم ، : أين تنهى نفرة الفتى . فعطف وقد سمع قول النساء وأنشد :

لقد علمن أنني غير فرق
 لأطعنن طعنة وأعتنق
 أصبحهم صاح بمحمر الحلق
 عضبا حساماً ، وسناناً يأتلق

ثم انطلق يعدو به فرسه ، فحمل عليه فارس من بني
 سليم ، فاستطرد له ربيعة في طريق الظعن وانفرد به ثم عطف
 عليه فشكه بالرمح فأرداه . فلحق به فارسهم نبيشة ورماه بسهم
 فأصابه في عضده ، فارتد إلى الظعن حتى انتهى إلى أمه وكانت
 معهم في الرحل فقال لما : اجعلي على يدي عصاية

ثم أنشد يرتجز :

شدي على العصب أم سيار
 قد رزئت فارساً كالدينار

فقلت أمه :

إنا بنو ثعلبة بن مالك مرزؤو خييارنا كذلك
 من بين مقتول وبين هالك

وشدت أمه عليه عصاية ، فاستسقاها ماء ، فقلت :

إن شربت الماء مت فكر على القوم فإن الماء لا يفوتك : فكر راجعاً يشتد على القوم ودمه يتزف حتى كشفهم وردهم عن الطعائن . ثم رجع فقال للظعن : اسرعن إلى أدنى بيوت الحى فإنى سوف أقف دونكن لهم على العقبة فأعتمد على ربحى فإن فاضت روى كان الريح عمادى ، وهم لا يجرؤون ما دمت واقفاً مكانى على اللحاق بكن لأن هيبتى وقعت فى نفوسهم فالنجاء ! النجاء ! . فإنى أرد بذلك وجوه القوم عنكن ساعة من النهار .

وأسرعت الطعائن فوصلت إلى الحى آمناً ، وهرب الرجال فى إثرهن وريبعة واقف إزاء أعدائه على جواده معتمداً على ربحه والدم يسيل من جروحه حتى لفظ آخر أنفاسه وبنو سليم واقفون يخافون أن يقدموا فى إثر الطعائن لا يجرؤون على الدنو منه . فلما طال منهم ذلك قال نبيشة : إنه لماثل العتق وما أظنه إلا قد مات . وأمر فارساً من فرسانه أن يرمى فرسه فرماها ففضت فخر ربيعة على وجهه . فأسرعت الفرسان وراء الظعن فلم يدركوهن وإنما أدركوا أخاه الحارث فقتلوه . ثم رجعوا إلى ربيعة فأهالوا الحجارة على جثته وأصبح ذلك

المكان قبراً له . وكان الفرسان يمرون به خاشعين يحيون حامى
الظعينة حياً وميتاً . بل أصبح مثلاً أعلى للفروسية الجاهلية التى
تضحى بأغلى ما تملك لتحمى المرأة من التردى فى الأسر وهو
أشد عار تخاف منه القبيلة العربية .

وقد مدحه كثير من الشعراء وعيروا أهله من الفرسان الذين
هربوا وخلوه وحده يقاتل فرسان بنى سليم : وهذا شاعر يعتذر
حينما مر بقبره ولم يعقر ناقته تعظيماً له :

نفرت قلوصى من حجارة حرة
بنيت على طلق اليدين وهوب
لا تنفري يا ناق منه فإنه
سباء خمر مسعر لحروب
لولا السفار وبعد خسر مهمه
لتركها تحبو على العرقوب
فر الفوارس عن ربيعة بعدما
نجاهم من غمرة المكروب
لا يبعدن ربيعة بن مكدم
وسقى الغوادر قبره بذنوب

زيد الخيل :

فارس من طيء قبيلة الشعراء والفرسان والأجواد ، وزيد فارسها المعلم العملاق وشاعرها المجيد المقل . أضيفت الخيل إلى اسمه لشغفه بها وكثرة ما اجتمع لديه منها ، وكان لا يقتنى الخيل إلا الفارس الموسر ، وقد عرفت له أفراس عدة منها : الهطال والورد والكميت ودؤول ولاحق .

وكان زيد الخيل طويلاً عملاقاً تخط رجلاه الأرض إذا ركب فرسه ، فكان منظره يروع منافسيه قبل أن يصابولوه أو ينازلوه . قدم على النبي في وفد بني طيء سنة تسع للهجرة ، فلما رآه أعجب بمنظره وقال له : « ما وصف أحد في الجاهلية فرأيته في الإسلام إلا رأيتك دون الصفة غيرك » . وقد أسلم زيد الخيل فسماه الرسول زيد الخير وأقطعته أرضاً يستغلها ، ثم مرض بالحمى ومات بعد فترة قصيرة .

وأخباره في الجاهلية تشهد ببطولته وفروسيته : كان عامر ابن الطفيل أحد فرسان العرب المشهورين قد أغار على

بنى فزارة فسي امرأة يقال لها هند، واستاق نعماً كثيرة لهم .
 فاتفق أن يخرج زيد الخيل يومذاك إلى بنى بدر وهم بطن من
 فزارة يطلب نعماً لهم عندهم . فقالوا : ما كنا قط إلى نعمك
 أحوج منا اليوم . وأخبروه بما فعل عامر بن الطفيل بهم .
 فانطلق زيد في إثره يبحث عنه ، فأدركه وهو يسوق النعم
 مطمئناً . ورآه عامر فأدهشه طوله وضخامته . وبرز إليه زيد
 وناداه : خل عن الطعينة والنعم ! فسأله عامر : من أنت ؟ .
 قال : فزاري أنا . قال عامر : والله ما أنت من القُلح أبواها
 (أى صفر الأسنان) ويريد بهم بنى فزارة . فقال زيد :
 خل عنها ! قال عامر : لا أو تخبرني من أنت . قال : أسدى .
 قال : لا والله ما أنت من المتكورين على ظهور الخيل .
 يريد بنى أسد . قال : خل سبيلها . قال : لا والله أو تخبرني ،
 فاصدقني . قال : أنا زيد الخيل . قال : صدقت ، فما تريد
 من قتالي ؟ فوالله لئن قتلني لتطلبنك بنو عامر ، ولتذهبن
 بنو فزارة بالذكر . واستأسر له عامر ، فجز زيد ناصيته ،
 وأخذ راحه ورد هند والنعم إلى بنى بدر . ورجع عامر إلى قومه
 مجزواً ، وأخبرهم بما وقع له فغضبوا وقالوا له : « لا ترأسنا
 أبداً » وخرجوا عن قيادته لهم . ثم جهزوا ليغيروا على بنى طيء

ورأسوا عليهم علقمة بن علاثة منافس عامر في الرئاسة .
فبعث عامر إلى زيد الحيل يخبرهم أنهم خرجوا لغزوهم . فجمع
زيد قومه وتربص لهم في مضيق جبلين حتى إذا أقبلوا قاتلهم
وأسر منهم جماعة وهرب الباقيون . وكان بين الأسوريين
الشاعران الخطيئة وكعب بن زهير . فمدحه الخطيئة بشعر
وأعطاه كعب فرسه الكميت فحلى سبيلهما . واستبقى بقية
بنى عامر في الأسر . ولما طال أسرهم سألوه أن يقبل الفداء
ويطلق سراحهم فقال لهم : الأمر إلى عامر بن الطفيل
يريد بذلك أن يعيد مكانته عندهم . فرفض بنو عامر لكنهم
اضطروا أخيراً إلى أن يهبهم لعامر الذي أطلق سراحهم واستعاد
مكانته لديهم .

وكان زيد الحيل شديد العصبية ليمنيته كثير الغزوات
للعدنانية ، وقد خص بنى أسد بأكثر غاراته وأعنفها . وكان
زيد لا يغفل عن حقه في الرئاسة وأخذ ربع الغنيمة في كل
غزوة يغزوها ، وكانت قبيلته تخضع لشروطه لأنها تعلم أنها
تعود معه ظافرة غائمة . حدث أن غزت بنو نيهان ومعهم
زيد الحيل قبيلة بنى غزارة فاقتتلوا قتالاً شديداً . فانهزمت غزارة

وساقت بنو نيهان الغنائم . ولكن فزارة حشدت فرسانها واستعانت
 بأحياء من قيس وفيهم رجل من سليم شديد البأس يقال له
 عباس بن أنس كان نازلاً في فزارة ، فأغاروا على نيهان ولم تكن
 الرئاسة حينئذ لزيد الخيل . فامتنع عن القتال ووقف ينظر
 إلى المعركة . فثقلت الوطأة على بني نيهان وأثخنت فيهم فزارة .
 فلما رأى زيد ما حل بقومه ناداهم : يا بني نيهان أأحمل ولي
 المربع . قالوا : نعم ! فشد على بني سليم فهزمهم وأخذ أم
 الأسود امرأة عباس بن أنس ، ثم شد على بني فزارة ومن معهم
 فهزمهم وفي ذلك يقول :

ألا ودعت جيرانها أم أسودا

وضنت على ذي حاجة أن يزودا

وسائل بني نيهان عنا وعندهم

بلاء كحد السيف إذ قطع اليدا

وكان زيد الخيل لا يحب لقومه أن يتحاربوا فيفنى بعضهم
 البعض وكان ينصح أبناءه أن لا يدخلوا تلك الحرب التي تفتك
 بين بطون القبيلة الواحدة . فقد قال لابنيه مكنف وحريث
 يوم اليحامي عندما تنازعت بطون قبيلته : أي ابني ، ابقيا على
 قوميكما ، فإن اليوم يوم التفاني ، فإن يكن هؤلاء أعماماً

فهؤلاء أحوال . واضطر يوماً إلى الابتعاد عن قومه حين يش من الإصلاح بينهم ونزل على بني تميم ، فلما خرجت بنو تميم لغزو البكرين بقيادة قيس بن عاصم خرج معهم ، واقتلت القبائل فترة وزيد الخيل واقف ينظر فلما رأى أن كفة بني بكر قد رجحت وأوشك التميميون أن يهزموا عز عليه أن لا ينجدها فحمل على البكرين يضرب أعناقهم ولا يتكئ بكنيته حتى لا يعرفوه فيثير عدااء بين قبيلته وبينهم ، فلما ناتصر بنو تميم جاء إلى قيس بن عاصم فقال له : اقسم لي يا قيس نصيبي .

قال قيس : وأى نصيب ؟ فوالله ما ولى القتال غيرى وغير أصحابي . ورفض أن يعطيه شيئاً لكي لا يظهر له فضلاً عليه أو على بني تميم فغضب زيد الخيل وخرج وهو يقول :

فلست بوقاف إذا الخيل أحجمت

ولست بكذاب كقيس بن عاصم

بل الفارس الطائي فض جموعهم

وكة والبيت الذي عند هاشم

إذا ما دعوا عجلاً عجلنا عليهم

بمأثورة تشفى صداع الجماجم

فلما عرف بنو عجل أن زيد الخيل سبب هزيمتهم — وبنو عجل بطن من بكر — أغاروا على بني نيهان وأخذوا نعيمهم انتقاماً منه . وبلغ ذلك زيد الخيل فانطلق في فوارس من بني نيهان فقاتل بني عجل واستنقذ بعض ما كان بأيديهم ولكنه لم يرجع إلى منازل خجلا من أنه لم يستطع أن يسترجع كل النعم فأغار على قبيلة تيم الله من قبيلة النمر بن قاسط أقرباء البكرين فغنم وسبي ورجع إلى قومه وهو يقول :

إذا عركت عجل بنا ذنب غيرنا

عركنا بئيم الله ذنب بني عجل

وعاش زيد الخيل مرهوب الجانب طيلة حياته ومات مسلماً بعد أن غير رسول الله صلى الله عليه وسلم اسمه من زيد الخيل إلى زيد الخير .

الشنفري الصعلوك :

نمط آخر من الفرسان الصعاليك يختلف عن ذلك النمط الذي يمثله عروة بن الورد ، فإذا كان عروة يمثل الفارس الإنسان فإن الشنفري يمثل الفارس الشيطان .

فهو أحد أغربة العرب أولئك الذين شعروا بالاضطهاد

النفسى والمادى بسبب لوهم ووضعهم الاجتماعى فى قبائلهم .
 وقد اختلف فى اسمه كما اختلف فى نسبه . فهو ثابت
 والشنفرى لقبه لضخامة شفتيه أو أن الشنفرى اسمه وليس لقبه .
 وهو أزدي ونشأ فيهم ثم أغاظوه فهجرهم أو أنه ولد فى بنى
 سلامان أو نشأ عندهم . ثم إن حياً من بنى فهم أغار على
 بنى سلامان وأسر الشنفرى وهو غلام صغير فلم يزل فيهم حتى
 أسرت بنو سلامان رجلاً من فهم ، ففداه الفهميون بالشنفرى .
 وكبر فى بنى سلامان وظن أنه منهم وحدث ذات يوم أن أراد
 أن يقبل ابنة من يتزل عليه فلطمت وجهه . فغضب ثم أخبره
 الرجل أنه أزدي من الأوس .

ورغم كل هذا الاضطراب الذى ساد نسبه فإننا نستطيع
 أن نقول إنه فقد توافقه الاجتماعى مع قبيلته الأزديّة فجاور
 بنى فهم تلك التى اشتهرت بلصوصها وصعاليكها ، وهناك اتصل
 بالصعلوك تأبط شرا ووجد فيه تلميذاً ممتازاً ووجد فيه تأبط شرا
 خير رفيق له فى غزواته ، وبهذا سنحت الفرصة للشنفرى ليتقم
 من قبيلته ، فصب عليها جام غضبه :

وحفّلت حياة الشنفرى بقدرته على سفك الدماء : فكان
 يقطع الطريق على المسافرين ويغير على أموالهم ونسائهم ،

كذلك كان يغير على الأحياء ليلاً فيروع ساكنيها من النساء والأطفال ويبطش بالرجال ، وبلغ من تحديه لأعدائه أنه كان يعلم سهامه قبل أن يرى بها الرجال حتى تعرف القبائل أنه هو القاتل . وكان يأتي الرجل ويقف على مبعدة منه ويقول له : أأطرفك ؟ ثم يرميه فيصيبه في عينه .

وتحاملت عليه القبائل جميعاً ورغبت في التخلص منه ، وتروى قصة جميلة تتصل بغضب القبائل عليه وانتقامها منه .

كان الشنفرى عندما ترك بنى سلامان مغاضباً قد أقسم أن يقتل مائة رجل منهم فما زال يترصدهم ويغتالهم حتى قتل تسعة وتسعين فارساً ، ولم يبق إلا فارس واحد حتى يبر بقسمه . وكمن له أسيد بن جابر السلاماني وكان من مشهورى العدائين مع نفر من قبيلته وكان الشنفرى قد قتل أخا أسيد وهو حرام ابن جابر . وتمر الشنفرى بهم يريد الماء فأبصر عن بعد سواداً فرماه بسهم وكان من عادته أن لا يرى سواداً إلا رماه فأصاب السهم ذراع واحد منهم فلم يصرخ حتى لا يفتن الشنفرى إلى أمكنتهم ، فلما أتمن ألقى سلاحه ونزل الماء ليشرب ، فانقض عليه أسيد ومن معه وأسروه وجاءوا به إلى بنى سلامان ، فقضت عليه القبيلة بالموت انتقاماً منه وتركوا جثته للضواري

طريجة القضاء . ويكمل الرواة هذه القصة فيقولون إن رجلاً من بني سلامان عثر على جمجمته يوماً ملقاة في الصحراء فرفسها برجله تشفياً وازدراء فغرزت شظية من عظمها في قدمه فجرحته ، وتعفن الجرح فمات الرجل فتمت به المأثمة . وبهذا بر الشنفرى بقسمه في حياته وفي موته . ويظهر أن القدر نفذ له رغبته مقابل وفائه بقسمه إذ كان يخاف أن يدفن بعد موته ، فيأتى أعداؤه فيمثلوا بجثته ، ولذلك أوصى بأن يطرح في الصحراء لأصدقائه من الحيوانات المفترسة ليكون طعاماً لها فهي أبرّ به من الإنسان .

فلا تقبروني إن قبري محرم

عليكم ولكن أبشرى أم عامر

ولا يستطيع متحدث عن هذا الصعلوك أن ينسى لاميته التي أطلق عليها لامية العرب . فهي من القصائد المختارة في تاريخ الشعر العربي لأنها تمثل الفطرة البدوية الحشنة بألفاظها، الساذجة بمعانيها ، كما تصور أنانية الشاعر ودورانه حول نفسه إلى جانب تصويرها لتمرده ورغبته في الانطلاق والتحرر من كل قيد يفرضه عليه المجتمع .

وإذا كان الشنفرى قد عاش عيشة الفاتك القاتل فإن ذلك

نتيجة لما لاقى في مجتمعه من عنت وقسوة ، وظلم اجتماعى وفوارق
 طبقية ، وبعد كل هذا فقد عاش مقاتلا ومات مقاتلا .
 وتلك أمنية كل صعلوك انشق عن المجتمع رغبة في التحرر ،
 وحباً في الانطلاق ، فلا عبودية ولا قيود ولا طبقية ولا قهر
 ولا استبداد .

تم طبع هذا الكتاب على مطابع
 دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٠

حضارة أجدادنا

احتل العرب في كل عصر مكانة عالمية جليلة . فقد حملوا مشعل الحضارة إلى الشرق والغرب وكانت حضارتهم أصلاً استمدت منه الأمم مقوماتها وأساساً شيدت عليه صرحها . وقوائم « دار المعارف » حافلة بالكتب والدراسات التي تتناول تاريخ العرب وآثارهم وفتوحاتهم وحضارتهم مما يتيح للقارئ العربي أن يقف على مفاخر أجداده وأن يقرأ صفحات ناصعة مشرفة من تاريخهم المجيد .

صفحة الثمن

ومن تلك الكتب

- * أثر العرب في الحضارة الأوروبية للأستاذ عباس محمود العقاد
- * الدولة العربية الكبرى للأستاذ محمود كامل
- * العرب في صقلية للأستاذ إحسان عباس
- * مقام العقل عند العرب للأستاذ قدرى حافظ طوقان
- * الفنون الإسلامية ترجمة الأستاذ أحمد محمد عيسى
- * بين الآثار الإسلامية في العالم للدكتور محمد مرزوق
- * تاريخ الفتح العربي في ليبيا للأستاذ الطاهر أحمد الزاوي
- * مجموعة ذوابع الفكر العربي

ثمن الكتاب ١٥ »

دار المعارف للطباعة والنشر والتوزيع

الثن ٥٠ مليماً

يوليو ١٩٦٠

٥٠ قرشاً سورياً

Bibliotheca Alexandrina



0694851

08
7
37